الرحلات الحجازية

ومناهج كُتابها في العصر الحديث

محمد واضح رشيد الحسني الندوي

جمع وترتيب

محمد وثيق الندوي

الناشر

دار الرشيد

دار الرشيد للطباعة والنشر والتوزيع ، لكناؤ

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ- ٢٠١٦م

يطلب من:-

(١) المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء لكناؤ .

(٢) المكتبة الندوية، ندوة العلماء لكناؤ

(٣) مكتبة إحسان، مكارم نغر لكناؤ

(٤) مكتبة الشباب العلمية الجديدة، مكارم نغر لكناؤ

دار الرشيد Dar Al Rasheed

164/106 Khatoon Manzil, Haidar Mirza Road
Golaganj, Lucknow. Mo: 9452294097-9838154415

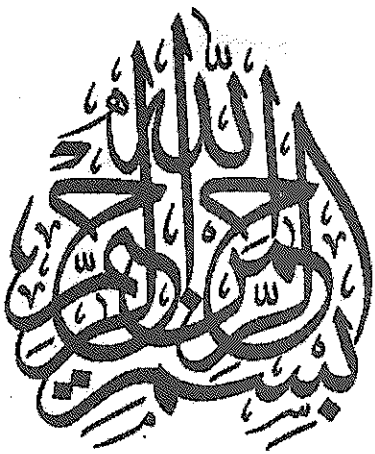
بسم الله الرحمن الرحيم

" وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ". (الحج: ٢٧- ٣٠)

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه". (رواه النسائي والترمذي بلفظه)

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء و المرسلين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فأدب الرحلات ـ كما جاء في "ويكيبيديا" ـ "هو نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث أو ما صاغه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، وتُعَدُّ كتب الرحلات من أهم مصادر الجغرافية والتاريخ والاجتماع، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية والتصوير المباشر مما جعل قراءتها غنية ممتعة ومسلية".

فإذا كانت الرحلات رحلات حجازية يقوم بها صاحب عاطفة إيمانية جياشة وذو أسلوب رشيق مؤثربليغ، إلى وطنه الأول، ومهد حضارته الإسلامية، ومصدر زاده الروحي، ومهبط الوحي السماوي، ومولد سيد الأنبياء والرسل، والديار المقدسة التي لها منزلة عظيمة في نفسه، والأراضي المباركة التي يهفو إليها فؤاده، ويتوق إليها قلبه، ويجري على القرطاس قلمه ليقيد ما شاهده، ويصف ما عاينه، مما اهتز به قلبه، وترنحت به أعطافه.

فكم تكون هذه الرحلات ممتعة رائعة منعشة للروح، وكم تكون مثيرة للشوق والحنان لمن يتمنى لها، وكم تكون محركة لعواطف الحب والهيام لمن يحلم بها.

إن هذه الرحلات التي سرد أحداثها وسجَّل ارتساماتها عدد كبير

من الأدباء، كلُّها حُبّ وهُيام، شوق وحنان، تجد فيها القلب ينبض، والعين تدمع، والقرائح تتفتق، والقلم يجري كالفرس، والخواطر تفيض كالسيل.

لم تجد ولن تجد رحلة تهزّ القلب، وتثير العواطف، وتحرّك المشاعر، وتغذّي الروح، وتجعل القارئ يتلذّذ ويتأثر، كما تفعل الرحلات الحجازية التي تُسَجَّل عامة بمداد من الدموع.

فهذا الكتاب الذي نقدمه إليك يحتوي على نماذج رائعة من الرحلات الحجازية الشهيرة التي قام بها بعض كبار الأدباء لأداء الحج والعمرة وسردوا أحداث رحلاتهم وأبدوا انطباعاتهم عن الزيارة المباركة لهذه الأماكن المقدسة الحبيبة الأثيرة، بغاية من الدقة والعاطفة والروعة والجمال والحب والتقدير.

اختارها لنا أبونا فضيلة الشيخ محمد واضح رشيد الحسني الندوي رئيس الشؤون التعليمية لندوة العلماء بلكناؤ، لنستمتع بها ونستفيد منها علمياً وأدبياً وثقافياً وروحياً ونزداد بها شوقاً إلى الديار المقدسة وهُياماً بها.

فنتقدَّم بالشكر الجزيل إلي فضيلته على عنايته بهذا الموضوع الحبيب إلى النفوس واقتنائه لهذه النماذج الأدبية الرائعة ليُعدّ مقالاً يقدمه في إحدى الندوات الأدبية والعلمية بعنوان "أدب الرحلات الحجازية ومناهج كتّابها في العصر الحديث" فنسأل الله له الخير، وأن يتقبل منه هذا الجهد ويبارك في علمه ويمدّ في عمره.

وأخيراً أشكر أخينا الفاضل محمد وثيق الندوي على ما بذله من جهد في إصدار هذه المجموعة بشكل كتاب مستقل ليعمّ النفع فله الشكر.

٢/ذو الحجة/١٤٣٧هـ جعفر مسعود الحسني الندوي

٢٠١٦/٠٩/٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي الرسالة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فإن أدب الرحلات أقوى قسم من أقسام الأدب وأسماها، لأن الكاتب الذي يصف رحلته، يقوم فيها بوصف المناظر المتنوعة، ويصف فيها ما يستمتع به، وما يعاني فيها من صعوبات، ويصف فيها الأشخاص الذين يلتقي بهم، وما يجري في هذه اللقاءات مع العلماء والزعماء والقادة والعاملين الذين يقومون بخدمات في مختلف مجالات الحياة ويتصفون بمختلف الطبائع والميول والأذهان.

وقد سجل عدد من الأدباء ارتسامات رحلاتهم، وكان منهم أمير البيان شكيب أرسلان الذي كان أكثر الأدباء رحلة ولقاء مع شخصيات عصره، وكتابه "رحلة إلى الأندلس" كتاب يقدم نموذجاً عالياً للوصف والتعبير عن الانفعال والعاطفة، وكذلك رحلته للأراضي المقدسة " الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف"وهي التي يطلق عليها اسم "الرحلة الحجازية"ووقف على تصحيحها وعلق بعض حواشيها العلامة محمد رشيد رضا المصري، وأصدرتها مطبعة المنار بالقاهرة ١٩٣٠م.

ومن الرحالة المعروفين ابن بطوطة، وابن جبير، و أسامة بن منقذ الذي ألف رحلته باسم "كتاب الاعتبار".

وقد سجل الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي انطباعات زياراته للمدن والبلاد التي زارها وسجل فيها انطباعات لقاءاته مع شخصيات عصره في مصر والسودان والمغرب والسعودية واليمن، منها "مذكرات سائح في الشرق العربي" و"الطريق إلى المدينة" ومن "نهر اليرموك إلى نهر كابل" و"أسبوعان في المغرب الأقصى" و"أسبوعان في تركيا" وكتابه "من منزلي إلى بيت الله العتيق" نال قبولاً عاماً بتأثيره على القلوب، وقبل ذلك سجل العلامة شبلي النعماني انطباعات زياراته للروم وتركيا.

وأدب الرحلات الحجازية نموذج لأدب الرحلات، وإن هذه الرحلة أطول الرحلات العادية، لأن الراحل فيها يمر بمدن مختلفة، ويشاهد آثاراً تاريخية، وتحمل هذه الرحلات فوائد علمية وأدبية وثقافية، وفكرية، وتوجد فيها عناصر الأدب من العاطفة والخيال والفكرة والتعبير الجميل.

وقد سجل عدد من الكتاب والأدباء في العصر الحديث ارتسامات رحلاتهم الحجازية، ومن أشهر هذه الرحلات رحلات الأستاذ عبد الوهاب عزام التي قام بها إلى الحجاز وإلى مناطق أخرى في أوقات مختلفة ابتداء من سنة ١٩٣٧م، ورحلة محمد شفيق أفندي مصطفى مندوب جريدة "السياسة" المصرية ١٣٤٦هـ، ورحلة محمد علي حسن مندوب جريدة "اللواء المصري"، ورحلة أحمد حسين

مؤسس حزب مصر الفتاة ١٩٤٨م بعنوان" مشاهداتي في جزيرة العرب"، ورحلة محمد حسين هيكل سنة ١٣٦٩هـ بعنوان"في منزل الوحي"، ورحلة علي الطنطاوي"من نفحات الحرم" ورحلة محمد الأمين الشنقيطي، ورحلة بنت الشاطي باسم" أرض المعجزات" و "رحلة الحجاز" للأديب المصري عبد القادر المازني، ورحلة عباس محمود العقاد، ورحلة الدكتور محمد رجب البيومي، ورحلة الكاتب المصري يوسف إدريس التي سجل أحداثها ووقائعها وانطباعاته عنها في كتابه "إسلام بلا ضفاف".

وإن تجربة الشعراء في الحج وزيارة الأراضي المقدسة، تجربة فريدة، فكثير من الشعراء الذين حجوا بيت الله العتيق آثروا أن يعبروا عن رحلتهم الحجازية بمجموعة من القصائد، كقصيدة "إلى عرفات الله" للشاعر أحمد شوقي، وديوان "رجع الصدى" وهو يشتمل على ثلاث قصائد(في أرض النبوة، وحمائم الحرم، وتحية وقضية) وقصائد عمر بهاء الدين الأميري .

وقد حاولنا في هذه العجالة ذكر نماذج من عدد من الرحلات الحجازية المعروفة في هذا العصر، ويجد القارئ فيها فائدة علمية وأدبية وثقافية.

وكانت أُعِدَّت هذه المقالة للتقديم في ندوة علمية أدبية بعنوان "الرحلات الحجازية في منظور التحديات الجديدة" قامت بعقدها رابطة الأدب الإسلامي العالمية في لاهور بباكستان في ٢٤- ٢٥/ أكتوبر عام ١٩٩٧م، وكانت مغمورة، فأخرجها تلميذي العزيز

محمد وثيق الندوي، ثم راجعها وحققها، وكانت المقالة مشتملة على نماذج خمسة كُتَّاب: علي الطنطاوي، والشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ومحمد الأمين الشنقيطي، ومحمد حسين هيكل، والدكتور محمد إقبال، فأضاف إليها الأخ محمد وثيق الندوي نماذج أخرى مما كتبه الأدباء و الشعراء في العصر الحديث، وذكر ترجمة يسيرة لكل منهم، واقتبس بعض النماذج من مجلة "الحج والعمرة" التي تصدرها وزارة الحج بالحكومة العربية السعودية، فأشكره، وأدعو الله له السداد والتوفيق لما يحب ويرضى والله ولي التوفيق.

محمد واضح رشيد الحسني الندوي
١/ذي الحجة ١٤٣٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

سماحة العلامة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين و خاتم النبيين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فإن الأحوال والأحداث التي يمرُّ بها الإنسان، تفيد من ناحيتين: ناحية علمية؛ يطلع بها الإنسان على الأمر الواقع، ويستفيد به لتقوية أعمال حياته وتوسعتها، وناحية التأثر بها وانطباع القلب بها، وهو يوجه الإنسان إلى استحسان شئ أو استقباحه، ويصبح سبباً لاختيار نوع من سلوكه وتوجُّهه إلى هدف أوغاية لحياته، وينطبع بطابع حبه أو كرهه، والاندفاع إلى العمل أو سقوط همته.

ومن أحوال الإنسان قيامُه برحلة أو جولة في أمكنة يرغب فيها، و ذلك للقاء أهله أو أصدقائه، وقد تكون رحلته مطلوباً لحضوره إلى حاكم أو مخالف له لمعاقبته أو تنبيهه على فعل من أفعاله، وقد تكون رحلته لأمر يتصل بعاطفته، وقد يسجل الإنسان وقائعه في رحلته إذا كان قادراً على تعبير مناسب لما يريده التعبير عنه، فيحصل منه تأثره وانطباعه في قلبه مما يذكره ويسجله، ونجد أمثلة ذلك في

كتب الرحلات التي يؤلفها أصحابها ويذكرون فيها الأحداث والأحوال التي مرُّوا من خلالها واطلعوا عليها في مختلف الأماكن ومختلف الأحوال، وأنواع من النفوس والأفراد؛ يلتقي بهم فيها، فتصبح بذلك كتب الرحلات مادة غنية مقروءة مؤثرة وبخاصة إذا كانت الأحوال والأحداث والأفراد ممن يستأنس بهم الكاتب أويستوحش منهم، ويلقى ترحيباً واستقبالاً له أو مجافاة وفسوة ممن التقى بهم، أو اطلع عليه من الأحوال، ولقد رأينا كتباً عديدة من هذا النوع في المكتبات، نذكر منها على سبيل المثال: رحلة السيرافي في القرن الثالث الهجري، ورحلة سلام الترجمان إلى حصون جبال، ورحلات كل من المسعودي صاحب "مروج الذهب" والمقدسي صاحب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" والإدريسي الأندلسي صاحب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" ورحلة الرحالة المؤرخ عبد اللطيف البغدادي، ورحلة البيروني المسماة " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" و رحلة ابن جبير الأندلسي، ورحلة ابن بطوطة، ورحلة أديب غرناطة الشهير لسان الدين بن الخطيب باسم "خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف" وكذلك رحلته " نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" ورحلة السفير المغربي أحمد بن المهدي الغزال باسم " الإجتهاد في المهادنة والجهاد" ورحلة ابن عثمان المكناسي "الإكسير في فكاك الأسير" ورحلته "البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر" ورحلة أبي القاسم الزياني" الترجمانة الكبرى" عن رحلته للحجاز ومصر والقسطنطينية، ورحلة أسامة بن منقذ باسم"كتاب الاعتبار" .

وفي العصر الحديث نال أدب الرحلات شكلاً فنيًا وليس دراسة تاريخية وجغرافية كما كان من قبل مثل" تخليص الإبريز في تلخيص باريز" لرفاعة رافع الطهطاوي، و"رحلة إلى الأندلس" للأمير شكيب أرسلان، و" الواسطة في أحوال مالطة" لأحمد فارس الشدياق، ورحلة" السندباد العصري" للأديب المصري حسين فوزي، و "زهرة العمر" لتوفيق الحكيم، و" مذكرات سائح في الشرق العربي" للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي.

ومن الرحلات الحجازية: الرحلة الحجازية للبتانوني، ورحلة شكيب أرسلان "الارتسامات اللّطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف" ورحلة حمد الجاسر، ورحلة محمد بن ناصر العبودي، ورحلة أحمد حسين بعنوان" مشاهداتي في جزيرة العرب"، ورحلة محمد حسين هيكل بعنوان"في منزل الوحي"، ورحلة علي الطنطاوي"من نفحات الحرم".

وأضيف إلى هذه الكتب كتاباً جديداً جمعه الأستاذ الأديب محمد واضح رشيد الحسني الندوي رئيس الشئون التعليمية لندوة العلماء فإنه اختار نماذج رائعة وبخاصة من أدب الرحلات الحجازية لشخصيات نابهة في الأدب والثقافة من الكتاب العرب، وكان اختياره موفقاً لكونه مقتبساً مما كتبه أصحاب التعبير الفني الجميل، وإبداء انطباعات قلبية مؤثرة، حينما يقرأها القارئ يشعر كأنه كان مرافقاً لهذا الأديب في رحلته وفي لقاءاته في رحلاته فيتأثر به، وكان استعراضه لهذه الأحوال المسجلة في كتب الرحلات مع تعليقاته المؤثرة كذلك، فإنه يوضح به روح الانطباعات والتأثر الخفية،

وبذلك زاد عرضه للأحوال المذكورة في كتابه قوة وتأثيراً للموضوع، نرجو الله العلي القدير أن القارئ سيستفيد بذلك استفادة كبيرة والله ولي التوفيق.

كتبه

٦/١٢/١٤٣٧هـ — محمد الرابع الحسني الندوي

٩/٩/٢٠١٦م — رئيس ندوة العلماء العام، لكناؤ

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحلات الحجازية
ومناهج كُتَّابها في العصر الحديث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد بن عبد الله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

أدب الرحلة

فإن الرحلة ووصفها صنف من أصناف الأدب، في كل لغة من لغات العالم، لأن الرحلة تنقل الإنسان من حالة إلى حالة أخرى، ومن مكان إلى مكان آخر، ويلتقي المرتحل في خلالها برجال وأصناف من الناس، ويواجه أوضاعاً مختلفة، وتتغير حالته الذهنية، ويشاهد مواضع الجمال والقبح، والمحاسن والمساوئ، ويجرب ما لذَّ وطاب، وما خشن وما تعسر، فإذا كان المرتحل ذا شعور مرهف، ويملك قدرة بيانية، وصف كل ما شاهده وجرّبه، وكل ما أحسَّ به، وتتجدد في ذهنه معان وخواطر، ويعلق عليها باعتبار شعوره ووجدانه، وباعتبار ثقافته وعلمه، فيحمل وصفُه مادة علمية وفنية، تفيد غيره، ويشتمل أدب الرحلة على فن وأدب وعلم، ويلتقي فيه الوصف والمدح، والتصوير للمناظر، وتشخيص الأحاسيس، ورسم الشخصيات، ويلتقي فيه علم التاريخ،

والجغرافية، والسياسة، والدين، ومشاهد الحياة، والطبيعة، والنفس، والاجتماع.

الرحلة عند العرب

وقد كانت الرحلة عند العرب بصفة خاصة ميزة من مزايا الحياة، تميزهم عن غيرهم من الأمم، لأنهم بحكم طبيعة حياتهم وموضعهم قوم رُحَّل، لا يستقرون في مكان، كما قال شاعر عربي جاهلي:

ونحن أناس لا حجاز بأرضنا مع الغيث ما نلفى ومن هو غالب

وقد وصف العرب رحلاتهم في أدبهم؛ نثرهم ونظمهم، وظل السفر ووصفه صنفاً من أصناف الأدب العربي، فلا تخلو قصيدة طويلة من قصائد العرب في الجاهلية من وصف السفر والارتحال، ولا حاجة إلى ذكر أمثلة، وهي كثيرة وعامة، سواء في المعلقات، أو القصائد الأخرى، ويكاد يصبح وصف الارتحال سمة للشعر العربي.

عُرفت بعض القبائل بالرحلة لأغراض التجارة، وهي آمنة، فإذا كانت بعض القبائل، ورجالها يرحلون ويختارون الغربة، ويصفون مهالكها، ومغامراتها، ومتعها، وشقاءها، لأنهم مضطرون إلى الارتحال من مكان إلى مكان، كما قال الأخنس بن شريق، أو كما يصف تأبط شرا، أو الشنفرى، أو السليك بن أبي السلكة، كانت قبائل آمنة تقوم بالرحلة للتجارة، كما كان بعض المرتحلين يرتحلون لزيارة الأمراء والأغنياء لطلب المال، فكانوا يصفون مناظر السفر الطويل، ويصفون القصور، وسكان القصور ومناظرها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الرحلة في سورة مستقلة: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [سورة

قريش١-٣] وذكر القرآن الكريم رحلات كثيرة، ووصف مشاهدها كرحلة موسى عليه السلام للقاء خضر عليه السلام، وهي رحلة علمية، ورحلته لدى خروجه من مصر خائفاً يترقب، ورحلة إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر في طلب الرزق، و رحلة سليمان عليه السلام، ورحلة ذي القرنين، وتشتمل جميع هذه الرحلات على صور بيانية مؤثرة.

وتذكر كتب التاريخ أن العرب كانوا يرتادون إلى الهند، وفارس، والروم للتجارة، و وصف بعض هذه الرحلات التي اشتملت على المغامرات محفوظ في كتب التاريخ و التراجم .

وفي العهد الإسلامي ازداد هذا الاتجاه، فخرج العرب من بلادهم، و وصلوا إلى أبعد أماكن الأرض، وبلغت قوافلهم إلى إفريقيا وأوربا، وأقصى الشرق في أوائل القرن الأول، وكانت هذه الرحلات للجهاد وللدعوة، وللعلم وللتجارة، تحمّلوا في هذه الرحلات شدائد ومحناً لم تحتملها الأمم الأخرى، واشتملت كتب المغازي والسير على وصف هذه الرحلات .

وقد حثّ القرآن الكريم على السفر والسياحة لتوسيع المعرفة والتدبر في آيات الله، والتذكر برؤية عواقب الأمم السابقة، وذكر السفر والسياحة ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة .

فالرحلة طبيعة عربية، وهي صنف من أصناف الأدب العربي القديم والحديث، وهي طبيعة إسلامية كذلك، وقد وسع دائرتها المسلمون سواء كان خروجهم في الدعوة، أم كان في الجهاد، أم في السفارة إلى الملوك والحكام، أم كان في طلب العلم، أم كان في طلب الرزق، وكان الخروج من الوطن، وقطع مسافات طويلة، وتحمل الشدائد فيها، والرحلة إلى أرض جديدة، والالتقاء بأمم أخرى سمة

الحياة الإسلامية، وسجل كثير من هؤلاء المرتحلين انطباعاتهم بأسلوب مؤثر جميل، وقصة جعفر بن أبي طالب لدى النجاشي، وقصة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وقصة ربعي بن عامر لدى رستم، وقصة الخروج لغزوة تبوك، وحديث الإفك، وقصة الإسراء والمعراج، وقصة سيدنا عمر بن الخطاب لدى فتح القدس، نماذج رائعة لأدب الرحلة في العصر الإسلامي الأول.

وتشتمل كتب التاريخ والتراجم على أدب الرحلة في طلب العلم والعلماء الباحثين في السفر.

الرحلة الخيالية

ونشأ في العصر العباسي الأول قسم جديد من أدب الرحلة، وهي الرحلة الخيالية، وتمثل هذه الرحلة رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، و القوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي، وهما أثران أدبيان لهما صلة بالرحلة، وإن كانت هذه الرحلة خيالية.

الرحلة الحجازية

ومن أصناف أدب الرحلة: الرحلة الحجازية، وهي الرحلة للحج والعمرة، يصف فيها العازم على الحج والعمرة سفره من بلده إلى البلاد المقدسة، ويصف ما جربه من رحلته، ويصف مشاعره، ويصور مناظر خلاّبة، ويصف وعثاء السفر، لأنه يمرّ بالجبال والوديان، والمروج والبيد، والغابات والبحار والأنهار، ويلتقي فيها برجال، ويصادف الأخطار، والمخاوف، فتشتمل رحلته على وصف ومدح، وتصوير للمناظر، وتشخيص للأحاسيس الذهنية، ورسم للشخصيات، والمواد العلمية والجغرافية، والأحوال الاجتماعية، والرحلة الحجازية، هو صنف إسلامي خالص، رغم كونه صنفاً أدبياً

خالصاً باعتبار المواد الأدبية، واشترك في التأليف فيها كبار الأدباء في عصور مختلفة، وقائمة الكتاب في هذا الصنف طويلة، وتوجد نماذجها في كل لغة من لغات المسلمين مثل المدائح النبوية التي توجد في كل لغة من لغات المسلمين، وقد وصف القرآن الكريم هذه الرحلة بأسلوبه المعجز الموجز فقال: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٢٧ـ٣٠]

مناهج الكتاب في وصف الرحلة الحجازية

تختلف مناهج الكتاب في وصف الرحلة الحجازية باختلاف طبائعهم وثقافتهم، فيغلب على بعض الرحلات الطابع الجغرافي، إذا كان الكاتب مهتماً بجغرافية الأماكن التي زارها، ولا يطغى ذلك على العنصر الفني، لأن الرحلة عندما تنقله إلى الأماكن المقدسة التي يشتاق إليها، وكان حريصاً على زيارتها منذ مدة إذا وقع بصره عليها فاضت قريحته، وثارت الأشجان والأشواق، فتصبح هذه القطعة أدبية خالصة، ويبدو كأنه وصف لديار الحبيب، فإن انتقل إلى جوانب أخرى انتقل بعد تحيتها تحية لائقة، ومنهج كاتب آخر، منهج علمي رزين هادئ، وغير منهج وصف للمناظر، والعرض الجغرافي.

ونقدم فيما يلي بعض نماذج هذه المناهج المختلفة.

علي الطنطاوي[1]

(١٩٠٩م - ١٩٩٩م)

نقدم أولاً نموذج العرض الفني الوجداني، وقد اخترناه من كتاب "من نفحات الحرم" للأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي (١٩٠٩م - ١٩٩٩م) وهو يصف حالته برؤية جبال المدينة، ونجد فيها كيف انتقل من حالة عادية إلى حالة عاطفية يقول:

"صحت بالدليل :

---

[1] - هو من كبار الكتاب الذين أنجبتهم الأمة العربية في القرن العشرين، ولد بدمشق عام ١٣٢٧هـ المصادف ١٩٠٩م، تلقى الدراسة الابتدائية والثانوية في مسقط رأسه، ثم سافر إلى مصر ودخل دار العلوم العليا، ثم عاد إلى دمشق ودرس الحقوق في جامعة دمشق، ونال الليسانس سنة ١٩٣٣م، وخاض غمار الصحافة، وكتب مقالات في صحف و مجلات: المقتبس، الفتح، الزهراء، فتى العرب، ألف باء، الأيام، الناقد، الشعب، الرسالة، المسلمون، ثم عمل في مجال التعليم، ودرس في المدارس الأهلية بالشام، ثم في مدارس الحكومة المنتشرة في أرجاء سوريا، وفي العراق، ودرّس في الكلية الشرعية ببيروت، ثم عُيّن مدرساً مساعداً في مكتب عنبر، ثم ترك التعليم ودخل في سلك القضاء، فقضى فيه خمسة وعشرين عاماً فصار قاضي دمشق الممتاز، وله رحلات ومشاركات في طائفة من الندوات والمؤتمرات المحلية والعالمية، وقضى في السعودية فترة طويلة، مدرساً ومذيعاً، وكان له برنامجان "مسائل ومشكلات" في الإذاعة و"نور وهداية" في الرائي، توفي في جدة عام ١٩٩٩م. أما كتابته فتجمع بين الرشاقة والجزالة، ومحاسن القديم والجديد، وتدل كتبه على اقتداره على اللغة، وبلاغته في التعبير، وأسلوبه يتسم بالشاعرية، وخصوصاً في وصف الطبيعة، والأماكن المفتوحة، فهو يأسرنا بالخيال الابتكاري البارع، والكلمة الموحية النابضة، وله مؤلفات حول الأدب والسيرة، والقضايا الإسلامية، والتاريخ، منها: قصص من التاريخ، رجال من التاريخ، أخبار عمر، من نفحات الحرم.

يا محمد ايش تكون هذه الجبال؟

فقال: هذه ياخوي جبال المدينة، ونحن إن شاء الله الظهر فيها.

قلتُ ما تقول بي؟ وثبت وثبة تطاير منها اليأس والخمول عن عاتقي، وأحسست كأن قد صب في أعصابي عزم أمة، وقوة جيش، وظننت أني لو أردت السحاب لنلته، ولو غالبت الأسود لغلبتها، ولو قبضت على الصخر لفتتته، وجعلت أقفز وأصرخ، لا أعي وما أنا فاعل، فقد استخفني الفرح، وسرني من هذه الكلمة أكثر من يسرني أن يقال لي: أنت أمير المؤمنين.

وصحت بأصحابي وقاموا كالأسود".

واقرأوا هذا الوصف للأماكن، وبيان الموقع الجغرافي وكله بأسلوب أدبي.

" ولما خرجنا من الوادي، وانتهينا إلى الفضاء الرحب، رأينا وجه أحد، وعلى سفحه النخيل والبساتين، ورأينا سلعاً وهو جبل عال أسود يقوم حيال أحد، فيحجب المدينة وراءه، فلا يبدو منها إلا جانب الحرّة، وطرف النخيل، فذكرت قول محمد بن عبد الملك الزيات وقد ورد بغداد، فحنَّ إلى المدينة:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بسلع ولم تغلق عليّ دروب
وهل أحد باد لنا وكأنه
حصان أمام المقربات جنيب
يخب السراب الضحل بيني وبينه
فيبدو لعيني تارة ويغيب

وهل شعر يكون أكثر تأثيراً من هذا البيت :

فإن شفائي نظرة إن نظرتها
إلى أحد والحرتان قريب
وإني لأرعى النجم حتى كأنني
على كل نجم في السماء رقيب

إن الأشواق التي عبر عنها الشعراء هي أشواق مادية زائلة ، سواء كان بيت امرؤالقيس.

وإن شفائي عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول

أوقول شاعر عربي :

هواي مع الركب اليمانين مصعد
جنيب وجثماني بمكة موثق

أما الأشواق التي يذكرها محمد بن عبد الملك فهي أشواق روحانية خالدة، ووصفها وصف خالص ومؤثر يعالج القلب تأثيراً مباشراً".

وعندما يدخل هذا المشتاق حماه الذي تخيله وتصوره في ذهنه، وعشقه، وحنّ إليه في حياته كلها، فكتب يقول وهو يصف حيرته وهي حيرة العاشق إذا وقف أمام حبيبه أو منزل حبيبه فيقول :

"نظرت في خريطة للمدينة كانت معي، وقلت للدليل، أما هذا (ذباب) قال : بلى والله فما يدريك أنت : قلت أما هذا (مسجد الراية) ؟ قال : بلى! قلت : هذه ثنية الوداع، وخفق قلبي خفقاناً شديداً، وخالطني شعور بالهيبة من دخول المدينة، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما في نفسي من الفرح

والسرور، وجعلت أتأمل المدينة، وقد دنونا منها، حتى لقد كدنا نصير بين بيوتها، وأحدق بالقبة، وتحتها أفضل من مشى على الأرض، وقد شخص بصري، وكدت لا أرى ما كان حولي لفرط ما أحس من جيشان العواطف في نفسي، حتى غامت المشاهد في عيني، وتداخلت كأنها صورة يضطرب بها الماء، وأحسست كأني قد خرجت من نفسي، وانفصلت عن حاضري، وذهبت أعيش في عالم طلق، لا أثر فيه لقيود الزمان والمكان".

ويقول:

"ونظرت فإذا السيارات أمام باب السلام، فأشرأبت الأعناق، وبرقت الأبصار، ودمعت العيون، وخفقت القلوب، وتعالى الهتاف، ونزلنا ندخل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت حال لا سبيل إلى وصفها قط، اللهم اجعل لنا إلى تلك البقاع التي شرفتها بمحمد معاداً"!

ويصل هذا الملهوف والمشتاق إلى مكة، ويأتي موعد زيارة الكعبة فيخاطب صحبه:

"كأنكم تدنون من الحبيب ودونه الحجب والأستار، فلا تزال ترفع لكم حجاباً بعد حجاب، وستراً بعد ستر حتى تروا طلعة الحبيب، وأين طلعته من طلعة الكعبة، وقبلة الإسلام، ومهوى القلوب.

ها هي ذي الكعبة يا ناس، هذا الحطيم، وزمزم، والمقام، لقد صحت الرؤي، وتحققت الأحلام".

ويصف الطواف، ثم يقول وهو يشعر بأنه عاجزعن البيان.

"إنه ليس الوصف كالعيان، ولا يستطيع قلم ولا لسان أن يصف لكم هاتيك العواطف السماوية التي تملأ قلب المسلم، إنه يطوف بالكعبة، فيخرج من حاضره وينسى دنياه ".(١)

إن هذا الكاتب الذي ذكرنا أمثلته من رحلته الحجازية هو عربي يعيش في جوار البلد الذي زاره، وهو ليس بغريب، فإذا كانت هذه رحلة أديب يعيش على بعد آلاف الأميال، فكم تثور عواطفه وتهيج شجونه .

(١) من نفحات الحرم، لعلي الطنطاوي، دار الفكر، دمشق ص ٩٧-١٥٧

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي([1])

(١٩١٣م - ١٩٩٩م)

يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي(١٩١٣م - ١٩٩٩م) في كتابه "الطريق إلى المدينة" وهو يعلل أسباب الشوق

---

[1] - هو من رواد حركة الإصلاح و الدعوة الإسلامية وحملة الفكر الإسلامي السليم في القرن العشرين، ولد عام ١٣٣٢هـ المصادف ١٩١٣م، وبعد وفاة والده العلامة الشريف عبد الحي الحسني تعلم وترعرع تحت كفالة وتوجيه أخيه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني، ودرس اللغة العربية على الشيخ خليل بن محمد بن حسين بن محسن الأنصاري البهوفالي (ت ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م) ثم الدكتور محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي المراكشي(١٣١١- ١٤٠٧هـ) وأخذ التفسير من الشيخ أحمد علي اللاهوري، و استفاد من الشيخ المحدث حسين أحمد المدني بن حبيب الله الفيض آبادي المشهور بالمدني (ت ١٣٧٧هـ) كما استفاد من كبار العلماء الربانيين في عصره، درس في دار العلوم لندوة العلماء ١٩٣٤م مادة الأدب والتفسير سنوات، ثم توفّر على التدريس والتأليف، ووضع المقررات الدراسية لتعليم اللغة العربية، وأسّس المجمع الإسلامي العلمي بلكناؤ في ١٩٥٩م، و قدّم فكرة إنشاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية، واختير رئيساً لندوة العلماء في عام١٩٦١م، وقام برحلات واسعة إلى أوربا وأمريكا والبلدان العربية، والمغرب الأقصى، والخليج العربي، وما إليها من البلدان، ونال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٩٨٠م، واختارته جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ١٤١٩هـ، ولم يكتف الشيخ الندوي بتأليف كتب أو إلقاء محاضرات، بل وراسل الملوك والحكام، وأشار إلى مواطن الضعف، والخطر الذي يحدق بالأمة الإسلامية، وله مؤلفات تربو على أكثر من ٣٠٠ كتاب، و منها: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، السيرة النبوية، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية. الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة. رجال الفكر والدعوة في الإسلام. وكتاباتُ الشيخ الندوي تتسم بالأسلوب الأخاذ، والمنهج العلمي، والدراسة الواقعية، والتعبير الوجداني، وتصوير الواقع، والبيان المؤثر. توفي يوم الجمعة في ٣١/ديسمبر ١٩٩٩م.

والهيام الذي تزخر به المدائح النبوية في اللغتين الفارسية والهندية، "علل ذلك بعضهم بالبعد والهجر، فلهما تأثير غريب في تفجير منابع القلب والحب، وتوليد المعاني الغريبة، وإشعال المواهب الدفينة"[1].

وهذه انطباعات نفس الكاتب الذي يزور المدينة المنورة، فيصف حاله وأشواقه، ويتصور عظمة المكان وقدسيته وتأثيره على قلب المتلهف الولهان فيقول:

"توجهت بعد الحج إلى المدينة المنورة على جناح الشوق، يحدوني حادي الحب والوفاء، أتحمل متاعب السفر، وأتمثل ذلك الراكب الأول الذي ملأ الفضاء نوراً وسكينة، ووصلت إلى المدينة المنورة، وصليت ركعتين في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وحمدت الله على ذلك، ثم وقفت وأنا مثقل بمنن لا أستطيع أن أكافئها، ولا أستطيع أن أقضي حقها، وصليت عليه صلى الله عليه وسلم، وسلمت عليه صلى الله عليه وسلم، وشهدت أنه صلى الله عليه وسلم، قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعَبَد الله حتى أتاه اليقين، وسلمت على صاحبيه الوفيين الأمينين اللذين لم يعرف التاريخ البشري صاحباً أوفى لصاحبه منهما، ولا خليفة أقوى على حمل أعباء الخلافة، منهما رضي الله عنهما وأرضاهما، ثم توجهت إلى البقيع، تلك القطعة الصغيرة التي تحتضن أعظم ثروة في الصدق والصفاء، والخلة والوفاء، وهناك رجال آثروا

---

(1) الطريق إلى المدينة للشيخ الندوي ص: ٩٨، المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الهند ١٤٢٧هـ.

الآخرة على الدنيا، وآثروا الغربة والهجرة في سبيل الإيمان والعقيدة على البقاء في الوطن في سبيل الشهوة والراحة، وآثروا جوار الرسول الله صلى الله عليه وسلم على جوار الأحبة والأقارب، فلم يبغوا عنها حولاً، ولم يطلبوا له بدلاً ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: الآية: ٢٣]

وتوجهت إلى أحد، تلك القطعة التي مثلت أروع رواية وأعظمها تأثيراً على تاريخ الإنسانية، رواية الإيمان واليقين، رواية البطولة والوفاء، رواية الحب الطاهر والولاء النادر، وكأني أسمع من أنس بن النضر"إني لأجد ريح الجنة من دون أحد" ويقول سعد بن معاذ: ماذا نصنع بالحرب بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد طار فى الناس أنه قتل، فيقول أنس، ماذا نصنع بالحياة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وهنا في أحد ترس أبو دجانة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره والنبل يقع فيه، وهنا ترس طلحة بيده حتى شلّت، وهنا قتل حمزة ومثل به، وقتل مصعب بن عمير، أنعم فتيان قريش عيشاً، ولم يجدوا ما يكفنونه به إلا الكساء الذي لا يغطي كل جسده، يا ليت أحداً أعار العالم شيئاً من هذا الحب والولاء، وأهدى للعالم شيئاً من الإيمان واليقين، فتبدلت الأرض غير الأرض، والعالم غير العالم"([1]).

([1]) الطريق إلى المدينة للشيخ الندوي ص: ٧٢ــ ٧٤.

محمد الأمين الشنقيطي[1]

(١٩٠٥م - ١٩٧٥م)

هذان نموذجان للكتابة الأدبية الفنية التي اشتملت على العواطف، وإليكم نموذجاً آخر، أسلوبه أسلوب هادئ، تحليلي علمي، لأن الكاتب باحث محقق أديب يركز على النقط العلمية، ومواضع الاختلاف، وآراء العلماء والأدباء، فينتقل من وصفه للأماكن إلى المباحث العلمية حولها.

إنه مأخوذ من رحلة الحج إلى بيت الله الحرام للعلامة محمد الأمين ابن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (١٩٠٥م - ١٩٧٥م) وقد سافر من موريتانيا إلى الحجاز، والعلامة الشنقيطي فقيه، فينتقل

---

1 - هو مفسر، مدرس من علماء شنقيط، ولد في تنبه من أعمال مديرية كيفا من القطر المسمى بشنقيط وهو دولة موريتانيا الإسلامية عام ١٣٠٥هـ، حفظ القرآن الكريم في بيت أخواله وتلقى التجويد، وعلوم القرآن، كما درس دراسة واسعة في الأدب وأنساب العرب وأيامهم، والسيرة النبوية، وأخذ عن علماء بلدته النحو و الصرف، والأصول والبلاغة، ودرس الفقه المالكي، وحج عام ١٣٦٧هـ واستقر مدرساً في المدينة المنورة، ثم الرياض ١٣٧١هـ وأخيراً في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٨١هـ، ثم زار الأقطار الإسلامية وخاصة دولاً أفريقية، وأختير عضواً في هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، وكان العضو التأسيسي في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وتوفي بمكة، وله كتب: منها أضواء البيان في تفسير القرآن، منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، دفع إيهام الاضطراب عن آي الأحكام، آداب البحث والمناظرة، مذكرة الأصول على روضة الناظر.

ذهنه إلى المسائل الفقهية، كما ينتقل ذهنه إلى المسائل النحوية واللغوية التي ذكرها بمناسبة لقاءاته، أو أسئلة علمية وجهت إليه خلال زيارته من أدب ونحو، وفقه وأصول، وتفسير وعقائد، ومنطق، وتاريخ وبيئة وطبيعة.

وقد كتب الأستاذ عطية محمد سالم أحد تلاميذ الشيخ مؤلف الرحلة في تقديمه لهذه الرحلة، وبيان ما تتميز فيه عن غيرها من الرحلات الحجازية فقال:

"يغلب على أساليب الرحلات وموضوعاتها أن يكون مبناها عرض خط السير من منطلق صاحبها إلى منتهاه، وتسجيل معالم الطريق، وأحداث المسير، وما جرى لصاحبها من أحداث تسر، أو تحزن، وتضحك، أو تبكي، وكل ما تشتمل عليه مجالس أدبية أو مباحث علمية، وبين أيدينا من أشهر الرحلات، رحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن جبير، وكلاهما رحلا من المغرب إلى الحجاز، وعادا إلى بلدهما، فلم تجد فيهما من المجالات العلمية أكثر من عرض لمشاعر الحج.

ولم أقف على رحلة عنيت بمسائل علمية، أو مجالس العلماء، ومباحث دقيقة وجليلة، اللهم إلا رحلة النابلسي إلى المدينة المنورة، فقد بسط فيها مباحث فقهية وأحاديث نبوية، وإن كانت لم تتعرض لشيء من المعقول كالمنطق والأصول، ورحلة أبي علي القالي.

وهذه الرحلة التي أتشرف بالتقديم لها، قد تميزت عن جميع الرحلات لما زخرت به من مباحث غاية في الدقة، وآية في الروعة[1].

---

(1) مقدمة "رحلة الحج إلى بيت الله الحرام" للعلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ص: ٦-٧

ومؤلف الرحلة الشيخ أمين الشنقيطي، يبين نفسه منهجه في رحلته فيقول ! "فليكن في علم ناظره أنا أردنا تقييد خبر رحلتنا هذه إلى بيت الله الحرام، ثم إلى مدينة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ليستفاد بما تضمنته من المذاكرة والأحكام، وأخبار البلاد والرجال، وما تجول فيه الأدباء من المجال، والغرض الأكبر من ذلك تقييد ما أجبنا به عن كل سؤال علمي سئلنا عنه في جميع رحلتنا"[1].

إنه يبدأ رحلته بقوله:

"خرجنا من عند أهلنا بجانب الوادي ذي البطاح والمياه والنخيل، وودعنا كل قريب وخليل، والبين يهيج في القلوب الداء الدخيل، فترى ورد الخدود يطله جمود الدموع، والأعين تنكر السنة والهجوع، ماء العيون في الجفن حائر حسبما قال الشاعر:

ولما شجاني أنها يوم ودعت
تولت وماء العين في الجفن حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرة
إليَّ التفاتاً أسلمته المحاجر

وكان يوم الخروج لهذه القاعدة الكبيرة لسبع مضين من جمادى الآخرة من سنة سبع وستين وثلاثمائة وألف"[2].

وبعد وصف خروجه من منزله، و وصوله إلى مكان "كيفة"، وإقامته هناك لمدة قليلة، يقول:

"سألتنا كريمة من بنات العم وهي أم الخيرات بنت أحمد بن

---

(1) نفس المصدر ص: ٤٠.
(2) نفس المصدر ص: ٤٠ ـ٤١.

المختار الجنكية عن مسألتين، أولاهما الفرق بين علم الجنس واسم الجنس، والثانية قول المتكلمين، إن الصفة النفسية لا يدرك بدونها الموصوف، وإن الإنسان مثلا بدون النطق غير معروف".

ويجيب الشيخ عن السؤالين بالتفصيل في رحلته ثم يقول "وصلنا قرية تامشكط عند صلاة المغرب فزارنا جلّ من فيها من الأكابر والعلماء، وعاملونا معاملة الكرماء، وكنا في ضيافة الرئيس سيدي أحمد بن العربي".

ويقول: "ومما دار في أثناء تلك المذاكرة السؤال عن مسألتين إحداهما بيان كيفية استحالة تسلسل هيولى العالم"(١).

وبحث المؤلف هذه المسألة ثم استأنف رحلته فكتب: "ثم سرنا متوجهين تلقاء قرية "العيون"، والعيون التي تسمى بها القرية عيون متعددة متفجرة من جبال هناك، يقال لها باللسان الدارجي "عيون العتروس" وهو بلسانهم الدارجي التيس، فقابلنا من فيها من الفضلاء باللائق من الإكرام والتبجيل وبالغ في إكرامنا قاضيها مع هدية سنية وأخلاق مدنية"(٢).

وينتقل إلى بعض المسائل الفقهية التي جرت في مجلس القاضي، وهكذا ينتقل من مكان إلى مكان في رحلته ويذكر المسائل التي توجه إليه ويذكر جوابه.

المسائل اللغوية:

يقول:

"طلب منا بعض القوم أن نبين لهم تنقيح المناط، وتخريج

---

(١) نفس المصدر ص: ٤٨.

(٢) نفس المصدر ص: ٥٣.

المناط، وتحقيق المناط، فكان جوابنا:

المناط بفتح الميم هوعلة الحكم.

والمناط في اللغة، مكان النوط وهو تعليق الشيء على شيء وإلصاقه به، كما قال حسان رضي الله عنه:

وأنت زنيم نيط من آل هاشم
كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وقال أبو تمام:

أحب بلاد الله ما بين منبج
إلي وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت عليَّ تمائمي
وأول أرض مسّ جلدي ترابها

وسميت العلة مناطاً لربط الحكم بها وتعليقه عليها"(١).

ثم يبحث تنقيح المناط وتخريج المناط.

يذكر الشيخ هذه المجالس العلمية خلال رحلته من بلده إلى أم درمان، ويصف في آخر الرحلة توجهه إلى الحجاز، فيصف رحلته، وبين خروجه من بلده إلى ركوبه سفينة الحجاج في أم درمان في ٢٥٤ صفحة، استغرقها كلها في مسائل فقهية، ولغوية، وبلاغية وأصولية، واستقباله الذي قوبل به في كل محطة نزل بها.

يقول: "ركبنا في السفينة متوجهين إلى جدة، فمكثت السفينة بنا يوماً وليلة في البحر، ثم نزلنا من الغد في جدة، فنزلنا في بيت

---

(١) نفس المصدر ص: ١٥٧.

لآل جمجوم غمومي لنزول أهل قطرنا، فمكثنا ليلتين في جده، ولم نجتمع بأحد من أهلها.

ركبنا من جدة بعد صلاة المغرب محرمين ملبين تلبية النبي صلى الله عليه وسلم لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك"(١).

ويبحث الشيخ مسألة الإحرام فقهياً، ويقول: "كان إحرامنا بالحج مفرداً، لأن الإفراد في مذهبنا أفضل من التمتع والقران".

ويذكر الأدلة الفقهية إيجاباً وسلباً.

ويصف العلامة أمين الشنقيطي دخوله في مكة المكرمة:

"ثم دخلنا مكة المكرمة تلك الليلة محرمين ملبين تلبية النبي صلى الله عليه وسلم، وطفنا تلك الليلة طواف القدوم، وسعينا بعده بين الصفا والمروة، وكنا عند دخولنا المسجد الحرام قلنا: "أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القويم من الشيطان الرجيم، اللهم افتح لنا أبواب رحمتك".

وعندما وقعت أبصارنا على الكعبة المشرفة، قلنا اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ومهابة، وزد من شرفه وكرمه لمن حجه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً، وتعظيماً وبراً، ثم ابتدأنا طوافنا من ركن الحجر، فقبلنا الحجر الأسود وقلنا: "بسم الله الله أكبر ولله الحمد"(٢).

وهكذا تسير رحلة العلامة أمين الشنقيطي الحجازية، وهي من أولها إلى آخرها رحلة علمية، يجد القارئ فيها مجالس علمية،

---

(١) نفس المصدر ص: ٢٥٥.

(٢) نفس المصدر ص: ٢٦٧- ٢٦٨.

ومباحث فقهية، ولغوية وبلاغية، ولا يجد فيها وصفاً لمنظر، أو تعبيراً عن عواطف، لأن طبيعة الكاتب وذوقه علمي خالص، كمالا نجد فيها بحثاً جغرافياً ولا تاريخيا كعادة الرحالة، إلا أن الرحلة حافلة بالمواد العلمية، والفوائد اللغوية، ويبدو الكاتب في المجالس العلمية حيث يقيم أو يمكث يوماً أو يومين، مرجعاً توجه إليه الأسئلة التي يحار فيها الباحثون، وهو يحل المشكل منها، وعندما يصل إلى الأماكن المقدسة ينزل من مرتبته العلمية، ويصبح زائراً عادياً ويسوده الخشوع والحشمة.

محمد حسين هيكل[١]

(١٨٨٨م - ١٩٥٦م)

وهنا نموذج آخر وهو عبارة عن وصف أدبي وتأثُّر قلبي بمشاهدة الديار الحبيبة، أبدع في وصفها الكاتب الأديب، وهو محمد

---

[١] - هو من روّاد الكتاب في القصة العربية، وقصة زينب التي ألفها تُعدُّ من الكتب الأولى في القصة العربية المعاصرة، ولد بمصر سنة ١٨٨٨م، حفظ القرآن، ثم سافر إلى القاهرة للتعليم في معاهدها، وهناك أكمل دروسه الابتدائية والثانوية في مدرسة "الجمالية الابتدائية، ومدرسة" الخديوية الثانوية"، ثم التحق بمدرسة الحقوق ونال شهادتها سنة ١٩٠٩م، ثم قصد فرنسا للتخصص، والتحق بكلية "السوربون" في "باريس"، وفي سنة ١٩١٢م فاز بالدكتوراه في الحقوق، ورجع إلى مصر، فاشتغل بالمحاماة في مدينة "المنصورة" و زاول هذه المهنة مدة عشر سنوات(١٩١٢- ١٩٢٢).ثم انصرف إلى دراسة الآثار العربية القديمة، واتصل بلطفي السيد، فنشأت فيه عاطفة إصلاح قومه ومعالجة قضاياه، فأرهف قلمه للكتابة، وخاض به في أمهات الجرائد في سائر موضوعات الحياة، يدعو إلى التجديد، والأخذ بأسباب الحضارة والتقدم، وخاض المعركة السياسية، وانضم إلى حزب الأحرار الدستوريين، وبازدياد شغفه بالسياسة ترك المحاماة وانغمس في غمار الحياة الصحافية والسياسية، وفي عام ١٩٣٧م انتقل هيكل من السياسة إلى الخدمة الحكومية، فاختير وزيراً للدولة، ثم وزيراً للمعارف، ثم رئيساً لمجلس الشيوخ سنة ١٩٤٥م، وظل في هذه الرئاسة إلى سنة ١٩٥٠م، وأخيراً ترك الوزارة، وكرس وقته كله للأدب، فعكف على دراسة التاريخ الإسلامي، فأصدر سلسلة من الكتب في الموضوعات الإسلامية كـ "حياة محمد" وهو من المحاولات الرائدة لعرض السيرة النبوية بأسلوب علمي معاصر، وقد دفعه إلى التأليف في السيرة الشبهات والمغالطات التي بثها المستشرقون في كتبهم، وقوبل هذا الكتاب في الأوساط العلمية، ونقل إلى لغات مختلفة. وكتب هيكل في معظم الفنون النثرية، فأنشأ المقالات والفصول من سياسية وأدبية، وألف كتب التاريخ، والسير، والنقد، والقصص، والرحلات منها: في منزل الوحي، و أسلوب كتابته يحمل مزايا الأسلوبين القديم والحديث بامتزاج عادل، فيمتاز أسلوبه بدقة الوصف، وتصوير المشاعر، والاتزان في التحليل، والسهولة والبلاغة التي لا تكلُّف فيها.

حسين هيكل(١٨٨٨م ـ ١٩٥٦م) في كتابه "في منزل الوحي" وكم يختلف هذا الوصف من وصف الكاتب السابق الذكر.

اقرأوا وصفه لمدينة جدة أول ظهورها له وهو في الباخرة :

"اقتربنا من جدة، وبدت لناظرها دورها وعماراتها ، وازدادت وضوحاً على رغم نزول الظلام، وكان مظهرها يغري بالظن أنها خططت تخطيطاً جميلاً، وبنيت على الطراز الحديث، وذلك الشأن في كل ما يبدو، وللمقبل في البحر من مظاهر اليابسة، فإذا اقتحمناه كنا كالجرَّاح إذ يقتحم بمشرطه جسداً جميلاً، وأحسب الذين لم يعرفوا من ذلك ما عرفت قد خدعوا بمظهرجدة، وكان من حقهم أن يخدعوا بهذه المباني التي تمتد أمامهم على الشاطيء أميالاً في نظام زاده البعد اتساقاً وجمالاً".

و في رحلته الحجازية يقصد الطائف، ويصف الطريق إليها، ويصل إلى حيث كانت تقام قديماً سوق عكاظ ويقف ليقول :

"وهنا المكان الذي يقولون إنه عكاظ، أما أنا فلم أر شيئاً استطيع أن أتبينه، فقد هبطت كسف الظلام، وانطوى الوجود في دجنة الليل، وكنا في الثلث الأخير من ذي الحجة، فلم أر للقمر في السماء من أثر، ولم تكن النجوم لتكشف من غطاء الليل شيئاً، وهذه الأودية الصامتة في رابعة النهارهي الساعة أشد صمتاً ومهابة".

والذي يلاحظه الناظر في كتابته الوصفية أن أروعها ما يتناول الصور المعنوية أو المشاعرالنفسية، فها هو مثلاً يزور غار حراء في الحجاز، فتهتز نفسه لديها لذكرى النبي صلى الله عليه وسلم ،

ونزول القرآن عليه، ويتخطى بذهنه القرون إلى الماضي البعيد، وإذا هو مسحور بصورة ذلك اليوم الفذ في التاريخ، إذ يتراءى له النبي بعين الخيال متمدداً في الغار وكأنه يسمع صوت الملك إذ يهيب بالنبي أن يقرأ فيتردد وجلاً، ويعود إليه الصوت أن اقرأ، فيجيبه: ماذا أقرأ؟! ويتلو الصوت الملائكي: اقرأ باسم ربك الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [القلم: ١-٥]

وهنا يقف هيكل متأثراً فيقول:

"خيل إلي وأنا في موقفي من الغار، أني أرى هذا المشهد الفذ، وأني أسمع هذه الأصوات، لم أسمع قط مثلها، وصفّدني الفزع مكاني، وأقمت أنتظر ما يكون من بعد، فإذا النور الباهر يرتفع، ومحمد في الغار يتصبب عرقاً، ويدور بنظراته فيما حوله، ويهتز مضطربا من رأسه إلى أخمصه، ثم يفرك عينيه ويمسح بيده جبينه العريض، المضيء سمة من يخشى مكروهاً أصابه، ويزداد به الرعب، فينطلق من الغار هائماً في شعاب الجبل لعل في هوائه ما يدفع عنه روعه.

ها هو ذا يقف منصتاً كأنما يناديه مناد من السماء - إنه الصوت الذي كان يحدثه في الغار - وهو يحدق في مصدر الصوت ويرى صاحبه فيزداد فزعاً، ويقفه الرعب مكانه، ويلقي بنظره إلى الجبل، ويصرف وجهه يمنة ويسرة، ثم لا ينفك يسمع ويرى، ليست حواسُّه اذن مصدر سمعه ورؤيته، إنما مصدرهما روحه.

وهذا الصوت الذي اتصل به هو صوت الروح الأمين، ما أشد هذه الساعة هولاً، وهي مع ذلك للإنسانية ساعة النور والرحمة والهدى (١).

ونقدم فيما يلي نماذج أخرى للكُتَّاب والأدباء الآخرين الذين زاروا البلاد المقدسة، وسجلوا انطباعاتهم وأحاسيسهم وخواطرهم وتتميز كتاباتهم بأسلوب سهل مؤثر، ولغة عذبة رصينة غنية بمفرداتها ومعلوماتها التاريخية والدينية والسياسية وخصائصها الفنية والأدبية واستنتاجات أصحابها.

(١) في منزل الوحي- محمد حسين هيكل، ص:١٨٨، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦م.

العلامة محمد رشيد رضا المصري([1])

(١٨٦٥م- ١٩٣٥م)

وصف العلامة محمد رشيد رضا المصري(١٨٦٥م- ١٩٣٥م) رحلته الحجازية، وصرف صفحات من رحلته لوصف الحالة الروحية عند أداء المناسك، وما فيه من تربية عالية للإنسان منفرداً ومجتمعاً، وما فيه من رياضة بدنية وروحية، وما فيه من تقوية للروابط الاجتماعية بين الأفراد وشعوب الحجيج وفي كونه عبادة روحية، مهذبة للنفس بتقوية شعور الإيمان، فيقول:.

" أما تأثير رؤية الكعبة والطواف بها، فإن التلبية تملأ قلب متدبرها إيماناً وتوحيداً، وتجرده من الحظوظ والأهواء تجريداً، وتعده لزيارة بيت الله والطواف، وهو في أحسن حال وأتم استعداد، حتى إذا اكتحلت عينه برؤية الكعبة المعظمة، وراع القلب ما جللها من المهابة والعظمة، تذكر أنها أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين،

---

[1]- هو من كبار زعماء حركة الإصلاح والتجديد في العصر الحديث، ولد عام ١٨٦٥م في بلدة قلمون قرب طرابلس الشام (لبنان اليوم) وكان ثالث ثلاثة – جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده- كان لهم تأثير كبير في الحركة التجديدية للفكر الإسلامي في مصر، غادر وطنه عام ١٨٩٨م وزار عدة دول، ووصل إلى مصر حيث أسس "مجلة المنار" والتي كانت فعلاً مناراً للفكر الإصلاحي الإسلامي، ومنبراً للدفاع عن حرية واستقلال الشعوب الإسلامية التي رزحت تحت نير المستعمرين: البريطاني والفرنسي، وشارك في إنشاء العديد من المدارس والجامعات لتحقيق الأهداف التي رفعتها مجلته المنار، وزار لذلك عدداً من البلدان كتركيا، وسوريا، والحجاز والهند، داعياً ومستنهضاً وزارعاً مع زملائه في حركة الإصلاح الإسلامي بذور الفكر الجديد، ومن هذه الرحلات رحلته للحج، ومن أعماله العلمية والفكرية تفسيره المعروف بتفسير المنار.

وخصه الله بالآيات البينات الباقية على بقايا الأيام والسنين، ورأى أمامها مقام إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ووجد نفسه حيث كان بدء دين الإسلام، وحيث الختام، فإذا دنا من مهبط الروح الأمين، ومطاف الملائكة، والنبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، فلا تسل عن الدموع كيف تنسكب؟ وعن الضلوع كيف تضطرب؟ وعن الأعناق كيف تخضع؟ وعن القلوب كيف تخشع؟".

وعلى نحو فلسفته لرؤية الكعبة وتأثيرها، جمع خواطره عن السعي وتأثيره تذكر عند السعي أنه "ذكرى سعي جدتنا هاجر عليها الرضوان، أم أبينا إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وعلى أبيه وصفوة بنيه، ويا لها من ذكرى لمجد العرب الكرام، ومعجزات الإسلام، مثبتة لحفظ الله تعالى لهذه الملة، وعنايته بهذه الأمة، حفظها العرب بالعمل المتواتر، وما يحفظ بالتمثيل والمحاكاة، يكون أثبت مما يحفظ بالتلقين والروايات.... فمن سعى بين الصفا والمروة، عالماً بما ذكر، متذكراً له، معتبراً به، فإنه يشعر في قلبه بنماء الإيمان بالله وبرسل الله، ويفهم سر قوله تعالى "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ" [البقرة: ١٥٨].

وانصرف الرحالة إلى العبادة والصلاة والطواف في المسجد الحرام، ومستقبلاً العديد من الشخصيات، وزار الشريف أبي نمى، والشيخ محمد صالح الشيبي سادن الكعبة "وهو رجل جليل المنظر، لطيف المعشر، حسن المفاكهة، له مشاركة في العلوم الإسلامية، والآداب العربية، وزار الشيخ يونس أفندي نائب الشرع الشريف، والشيخ عبد الملك الخطيب، ووصف الرخاء الذي شاهده في مكة المكرمة "اللحم فيها رخيص والثمرات والخضر كثيرة، وفيها الثلج، وقيل لنا إنه كان له معمل وقد كسر وتعطل".

وباشر في إكمال نسكه، صاعداً إلى "عرفات" ليلة التاسع من ذي الحجة، وكانت الجمال هذا العام قليلة، بسبب الاضطرابات السياسية، فارتفعت أجورها، وقل وجودها: "ولولا أن أمير مكة أمر عسكره بجلب الجمال من الأعراب ولو بالقوة، لتعذر على بعض الحجاج أن يجدوها إلا بأجرة فاحشة، وجئ برواحلنا إلى حوش الدار، فركبت الوالدة ومن معها من السيدات في الهوادج، وركبت أنا ورفيقي في شقدف".

ووصف خروجه من دار سكنه قرب باب إبراهيم، تاركاً المسجد الحرام على يساره، ماراً بالغزة، وبعد تجاوز العمران، يمر بـ"المعلا" ووراءه في طريق - منى - مكان يسمى البياضية، مطلق الهواء، فيه قصور لبعض الشرفاء، ومنه في وادي إلى مني، مارين بوادي، السلم، والمسافة إلى منى ٣ أميال، ومنها إلى المزدلفة وبينها وبين عرفات ساعة ونصف على الدواب" وخصص صفحات للحديث عن عرفات: معناها، وحدودها، وصفة جبل الرحمة، وموقف النبي صلى الله عليه وسلم عند الصخرات أسفله "وقد فاتنا لقلة الحجاج رؤية منظر من أعظم المناظر المؤثرة في النفس، المحركة لشعور الخشوع والعبودية في القلب، وهي رؤية هذا الصعيد غاصاً بالشعوب الوافدة من جميع أقطار الأرض، ملبين داعين، باكين خاشعين، يجأرون إلى الله عز وجل على اختلاف لهجاتهم، الناشئة عن اختلاف لغاتهم، يرددون الأذكار المعروفة بالعربية، ويدعون الله ما شاءوا بلغاتهم المختلفة.

ويصف ذروة اللحظات الحاسمة في هذا اليوم العظيم، يوم الحج الأكبر إن الحالة الروحية لا تبلغ الكمال في عرفات ظاهراً وباطناً إلا في أصيل ذلك اليوم العظيم وذلك لانشغال الحجاج أول النهار في تلمس

مكان نزولهم، وأمور أكلهم وشربهم، وراحتهم بعد النفرة إليها، وشهود الصلاة والاستماع للخطبة "وكلما كبر ولبى الخطيب، كبر ولبى من حوله مشيرين بأطراف أرديتهم البيضاء أو مناديلهم، ويتبعهم في التلبية والإشارة كل من كان على جبل الرحمة، فيلبي سائر الناس ويكبرون: فتموج بأصواتهم الهواء، وترتج الأجواء، حتى تصل إلى عنان السماء، بل تخترقها حاملة ذلك الذكر والثناء، والضراعة والدعاء، إلى من استوى إلى عرشه المجيد، وهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، فيا له من موقف عظيم، وما أصدق من شبهه بيوم القيامة".

ونفر من عرفات إلى مزدلفة، فنزل بفناء المشعر الحرام، وبات ليلته "بجوار رفاق من خير الناس عرف منهم الشيخ علي مؤمنة، وبعد صلاة الليل أحضر لي الشأي، وصحناً فيه لوز مقشر، وآخر فيه هشة من الكعك المعروف بالقراقيش، فأصبحت من ذلك كله شاكراً لهم، ولما طلع الفجر صلينا جماعة، ثم ذهبنا نجمع الحصا لرمي الجمار، فلما جمعناها ركبت دابتي وسرت مع أصحابي مشاة قاصدين منى، ملبين، مكبرين قبل طلوع الشمس عملاً بالسنة، ومخالفة لما كان عليه في الجاهلية من الإفاضة من المشعر الحرام عند طلوع الشمس".

وبعد رمي جمرة العقبة يوم النحر، عاد الرحالة لمكان إقامته في منى "دار الشيخ محمد نصيف وهي من أعظم الدور حسناً وسعة"، وقد سجل ما سمعه من شريف مكة المكرمة عن منى، وكونها كانت في أول أيام الإسلام من أطيب أيام الحياة" فلما قربت المواصلات بين أقطار العالم الإسلامي البعيدة، صار ينتقل الوباء إلى الحجاز مع الحجاج الموبوئين، فيكون فتكه أشد عند اجتماع الناس في منى"[1].

---

[1] أحمد محمد محمود، مجلة الحج والعمرة، جمادى الآخرة، ١٤٢٩هـ، ص: ٣٤- ٣٥.

أمير البيان شكيب أرسلان[١]

(١٨٦٩م- ١٩٤٦م)

يقول أمير البيان شكيب أرسلان (١٨٦٩م- ١٩٤٦م) في مقدمة رحلته " الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف" :

" فقد مضت عليَّ حجج كثيرة وأنا أهم بأداء فريضة الحج، والعوائق تعوق، والموانع من حول إلى حول تحول، إلى أن يسر الله

---

[١] - هو يُعَدّ في الطليعة من كُتَّاب العرب، الذين جاؤوا بعد عصر الرُوَّاد، ونبغوا في النصف الأول من القرن العشرين، فقد حمل من القرن الماضي وأساتذته الشغف بالقدماء، واختبر أحوال القرن العشرين سياسياً واجتماعياً، فصورها بقلم متمكن من اللغة، حريص على أساليب بيانها، فلا بدع أن يلقبه المعجبون به بأمير البيان، كما لقبوا شوقي بأمير الشعراء، ولد بالشويفات بلبنان عام ١٨٦٩م، ونال التعليم الابتدائي على أيدي معلمين خصوصيين في بلدته، ثم انتقل إلى بيروت، ودخل "مدرسة الحكمة" وتلقى أصول العربية والفرنسية، ثم انتقل إلى "المدرسة السلطانية" فتعلم التركية والفرنسية، و الألمانية والإنجليزية وأتقنها، وبعض العلوم الدينية وغيرها، ولما أتم التعليم تولى بعض المناصب الحكومية، وانتخب نائباً عن مقاطعة "حوران" في عام ١٩٠٨م، وفي عام ١٩٢١م انتخب سكرتيراً للوفد الذي شكله المؤتمر السوري الفلسطيني ليدافع عن استقلالهما أمام الأمم المتحدة في جنيف، ودافع عن قضية سوريا وفلسطين، وعمل لتحريرهما من براثن الاستعمار، فانتقل من "برلن" عام ١٩٢٥م حيث كان مقيماً إلى جنيف، وأقام بها حتى نهاية حياته سنة ١٩٤٦م، وقد قام أرسلان بأسفار كبيرة إلى البلاد الأوربية والشرقية، ومن البلدان العربية التي زارها أو أقام فيها عدا الشرق العربي: تركيا، وإيطاليا، وألمانيا، وفرنسا، وسويسرا، وانكلترا، وأسبانيا، وأمريكا وغيرها، وسجَّل انطباعاته عن هذه الزيارات، منها رحلة إلى الحجاز، وألف كتباً قيمة، أحسنها وأشهرها حواشيه على حاضر العالم الإسلامي، وبالإضافة إلى تأليف الكتب قام بتحقيق عدة كتب قديمة، وله عدة ترجمات.

بلطفه وحسن توفيقه لي أداء هذا الفرض سنة ١٣٤٨هـ أي منذ سنتين كاملتين، فكان قصدي إلى الحجاز من لوزان بسويسرة عن طريق نابولي بإيطاليا، إذ ركبت منها إلى البحر على باخرة إنجليزية إلى بورسعيد حيث نزلت، وفي اليوم الثاني ذهبت إلى السويس ومنها أبحرت إلى الحجاز، في باخرة مكتظة بالحجاج، فأحرمنا ولبينا من بحر رابغ، ووصلنا إلى جدة من السويس في اليوم الرابع، على ما وصفت في رحلتي الحجازية التي سيقرأها الطالع".

و يقول: فصلنا من ميناء السويس في ٨ مايو ١٩٢٩م على باخرة تقل نحواً من (١٣٠٠) حاج من إخواننا المصريين، وفيهم بعض المغاربة، فسارت بنا الباخرة رهواً ورخاء لم نشعر فيها إلى جدة بأدنى حركة للبحر تزعج الراكب.. وفي اليوم الثالث من مسيرنا ناوحنا ميناء رابغ، ولما كان الحجيج الوارد من الشمال في البحر الأحمر عليه أن يحرم من رابغ: فقد أحرم جميع الحجاج ا لذين في الباخرة، وارتفعت الأصوات من كل جهة لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، فاستشعر الناس من الخشوع في أثناء ضجيج الحجيج هذا ما اتصل بأعماق القلوب، وتغلغل في سرائر النفوس، وأحس الجميع أن البيت الذي يخلع الناس تعظيماً له أثوابهم قبل الوقوف بعتبته بمسيرة يومين، ويشتملون في القصد إليه ما ليس فيه شئ من المخيط، لبيت مقدس، لا يؤمه الناس كما يؤمون سائر البيوت، وإنه فوق بيوت الملوك، وفوق مقاصير القياصرة وأواوين الأكاسرة، التي لا يحرم في الطريق إليها أحد، لا من بعيد ولا من قريب، وما زال الناس

مستشعرين الخشوع تلك الليلة، مواظبين على التلبية، مترقبين طلوع الفجر الذي يدنيهم من جدة، ميناء البيت العظيم الذي يؤمونه إلى أن انفلق الصبح، وأخذت تبدو جبال الحجاز للعين المجردة، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتسبيح والتكبير، وازداد ضجيج التلبية للعلي الكبير، وخالط الهيبة والخشوع بالقدوم على البيت الحرام، الفرح والابتهاج بالوصول إلى أطهر بقعة وأقدس مرام.

و يصف المؤلف جدة وسحرها وروعة منظرها: فيقول: ولقد طاب لي من ميناء جدة منظران لا يزالان إلى الآن منقوشين في لوح خاطري (أحدهما) رؤية هذه البواخر الواقفة في الميناء ناطقة بلسان حالها.. وأما المنظر الثاني: فهو منظر مياه هذا الميناء، فلقد طفت كثيراً من البحار وعرفت أكثر البحر المتوسط والبحر الأسود وبحر البلطيك وبحر المانش والأوقيانوس الأطلنطيك، ولم يقع بصري على شئ يشبه مياه بحر جدة في البهاء واللمعان.

ويفصل القول شكيب أرسلان فيقول: جعل الله مكة لعبادته تعالى لا غير، وكأنه سبحانه وتعالى لما قضى بأن تكون محلاً للعبادة، ومثابة للناس وأمناً قضى أيضاً بتجريدها من كل زخارف الطبيعة، ولم يشأ أن يطرزها بشيء من وشي النبات، ولا أن يخصها بشيء من مسارح النظر المؤنقة، حتى لا يلهو العابد عن ذكر الله بخضرة ولا غدير، ولا بنضرة ولا نمير، ولا بهديل على الأغصان ولا هدير، وحتى يكون قصده إلى مكة خالصاً لوجه ربه الكريم، لا يشوبه تطلع إلى جنان أو رياحين، ولا حنين إلى حياض أو غياض، وحتى يبتلى الله عباده المخلصين الذين لا وجهة لهم سوى التسبيح له،

والتأمل في عظمته تعالى، فكانت مكة أجرد بلدة عرفها الإنسان، وأقحل بقعة وقعت عليها العيان، مكة هذه البلدة المقدسة التي هي فردوس العبادة في الأرض، وجنة الدنيا المعنوية، عبارة عن واد ضيق ذي شعب متعرجة.. وليس في تلك الشعاب أشجار ولا أنهار، ولا مروج ولا عيون تلطف من حرارة تلك الحجارة السود في القيظ – طبعاً هذا كان قبل أن تتحول المشاعر المقدسة ومكة إلى واحة ظليلة فيحاء في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله وأبنائه الملوك من بعده، الذين كانت خدمة المقدسات من أولى أولوياتهم – وكأن القاصد إلى هذا الوادي إنما يزداد بهذه القسوة الجغرافية أجراً وثواباً وارتفاع درجات؛ فبقدر ما أفاض الله على هذا المكان من الشعاع المعنوي قضى بحرمانه من الحلية المادية.

وقد وصف الله تعالى هذه الحالة فقال على لسان إبراهيم عليه السلام: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ" [إبراهيم: ٣٧] وظاهر من هذا أنه واد مجرد للعبادة دون غيرها.. فبدعوة إبراهيم هذه هوت إلى هذا المكان وإلى المتمكنين فيه أفئدة ورفرفت عليهم جوانح من جميع فجاج الأرض، وترى الناس منذ ألوف من السنين يحجون هذا البيت المحرم، ويحرمون قبل الوصول إليه بمراحل، ويوفضون إليه كأنما يوفضون إلى أنزه بقاع البسيطة وأطيبها نجعة وأكثرها خيراً وميراً، وتجد قلوبهم في الرحلة إليه ملأى بالفرح، لا يكادون يصدقون أنهم مشاهدوه من شدة الوجد وغلبة الهيام، حتى إذا شاهدوه فاضت العبرات، وخفقت الجوانح، وتمايلت الأعطاف، وانتقل الناس إلى عالم نكاد

نقول إنه غير هذا العالم، قال ابن دريد عن مكة والكعبة والحرم:

يحملن كل شاحب محقوقف
من طول تدآب الغدو والسرى
ينوي التي فضلها رب السما
لما دحا تربتها على البني

ويضيف المؤلف قائلاً: وهم إذا وصلوا إلى مكة وجدوا عندها من الثمرات والخيرات ما لا يجدونه في البقاع التي تشقها الأنهار، وتظلها الأشجار، وذلك أن المجلوب إلى مكة من أصناف الحبوب والخضروات والفواكه والمحمول إليها من البضائع والمتاجر واللباس والفراش والرياش والطيب وغير ذلك يفوق ما يجلب إلى عشر مدن من أمثالها في عدد السكان وربما أكثر، ولا يكاد الحاج يشتهي شيئاً إلا ويجده في هذه البلدة القاحلة، فحول مكة من المزارع والمباقل والمقائي، وفي جبال الطائف من الجنان والبساتين والكروم ما لا يأخذه العد.

ويقول أيضاً شكيب أرسلان عن جبل عرفات الله: وقد ذكروا في أخبار عبد الله بن كريز العبشمي الذي كان من شجعان الصحابة وأسود فتوحات الإسلام، وهو الذي فتح فارس وسجستان وكابل: "أنه اتخذ النباج (اسم قرية) وغرس فيها: فهي تدعى نباج ابن عامر.. وغرس بها نخلة، وأنبط عيوناً تعرف بعيون ابن عامر بينها وبين النباج ليلة على طريق المدينة وحفر الحفير، ثم حفر السمينة، واتخذ بقرب قباء قصراً.. واتخذ بعرفات حياضاً ونخلاً.. وكان يقول: لو تركت لخرجت المرأة في حداجتها على دابتها ترد كل

يوم وسوقاً حتى توافي مكة. وكان علي بن أبي طالب يقول عنه إنه فتى قريش. مات سنة ٥٩هـ". ويشير كذلك المؤلف إلى أن المسلمين ولاسيما العرب في أشد حاجة اليوم إلى رجال كعبد الله بن عامر بن كريز العبشمي الفاتح الماتح ا لمعمر المثمر الذي كان مغرماً بالعمارة حيث حل وأينما ارتحل.

وبقطرات من الخشوع والتجرد والإخبات يصف شكيب أرسلان ما رآه من حق وحقيقة أمام روعة مشهد الحج العظيم الجليل: ما أنسى لا أنسى منظر عرفات ليلاً. فهو من أبهج ما ارتسم في خاطري من مناظر هذه الدنيا الفانية، مع كثرة ما شاهدت في حياتي، وما تقلبت في الأمصار والعواصم. فقد أقبلنا عليها غلساً أتين من منى، فكانت أشبه بسماء في كواكبها وطرائقها، منها بسهول وهضاب في خيامها، وقبابها المضروبة، ومصابيحها المعلقة، ونيرانها المشبوبة. فكان منظراً قيد النواظر لا يشبع منه الرائي تطلعاً، ولا يزداد به إلا ابتهاجاً. وليست عرفات في النهار بأقل حسناً وجلالاً في تموج جموعها وتراص قبابها، ولاسيما في مناظر الخشوع التي تأخذ بالألباب، ومسامع الأدعية التي ليس بينها وبين الله حجاب" (١).

---

١ - صلاح حسن رشيد، مجلة الحج والعمرة، صفر، ١٤٣٠هـ، ص: ٢٣- ٢٤.

عبد الوهاب عزام بك[١]

(١٨٩٤م- ١٩٥٩م)

سجل عبد الوهاب عزام (١٨٩٤م- ١٩٥٩م)خواطره في رحلته الحجازية وهو يتحدث عن الليل في رحاب الحرم المكي في أسلوب متفرد و متميز في وصفه للبقاع المقدسة وفي بلاغة ينتقل سحرها إلى حواس القارئ، فيرحل بخياله إلى الأماكن الموصوفة، فيشاهد ويسمع، كأنه رحل وحلّ، فيقول: مهود وسنان، ترى العين سكونه ويحس القلب سكينته، ونسيم السحر يسري رفيقاً، ينفح الخليقة، لا أدري أيبغي إيقاظها أم إنامتها".

ويمضي د.عزام في وصف سكون الليل ونور القمر وخفقات النسيم.. وقمم جبال مكة: غندمة وأبي قبيس وأجياد.. "ولكن طرق

---

[١] - هو من الذين أوتوا ما لم يؤت أحد من الرحالة من قوة الملاحظة، وحب المعرفة، والرغبة في الإفادة، أمثال ابن جبير، وابن بطوطة، والبيروني، والحسن الوزان، والبغدادي، بل إنه يؤتى ما لم يؤت هؤلاء جميعاً، من صحة العلم، وسلامة الحكم، ودقة الفهم، وخفة الروح، ولطف النادرة، وسلاسة الأسلوب، والعقلية الموسوعية لرحالة بحاثة وصافة. ولد عبد الوهاب عزام عام ١٨٩٣م بقرية الشوبك الغربي من أعمال محافظة الجيزة بمصر، وتوفي عام ١٩٥٩م، أتم دراسته بالأزهر حيث حصل على درجة العالمية عام ١٩٢٠م، ثم التحق بالجامعة الأهلية(جامعة الفؤاد الأول بالقاهرة) ونال درجة الماجستير من مدرسة اللغات الشرقية بلندن، والتي كان لها أثر كبير في حركة الاستشراق، ثم حصل على درجة الدكتوراه في الأدب، وتولى عمادة كلية الآداب خلال السنوات ١٩٤٥- ١٩٤٨م، وعين سفيراً بالمملكة العربية السعودية، ثم باكستان، وتولى إدارة جامعة الرياض، وله آثار علمية، أبرزها رحلاته، وترجمة الشاهنامة إلى اللغة العربية عام ١٩٢٣م.

مكة لا تنام ولا تفتر عنها الأقدام" فجموع المؤمنين، متمهلة أو مسرعة، تتوجه شطر الكعبة المشرفة "قلوب والهة لا تهجد وعيون باكية لا تغمض وألسنة ذاكرة لا تفتر.. هذا هو المسجد الحرام.. فهل تقع العين إلا على مصل خاشع، وطائف بالكعبة واله، وقارئ تنطق بضراعته الآيات، وداع يرسل قلبه في كلمات.. كم قلب محزون حمل إلى هذا الجناب شكواه، وفؤاد معذب يبث في هذه الساحة نجواه، وكم آثم حط في هذا الفناء الأوزار ليمحقها بالتوبة والاستغفار، وكم يائس ورد يستقي الرجاء، ومحروم أقبل يستدر العطاء..".

ويمضي د. عزام في خواطره أيضاً بشأن المظلومين والظالمين، والضارعين والضائعين، وأكداس من الآلام والآمال، وأشتات من الهموم والأماني.. ووراء كل هؤلاء.. قلوب في المشرق والمغرب توجهت شطر المسجد الحرام: "فكم مصل في أرجاء الأرض ولى هذا الجناب وجهه وقلبه، وكم داع قصد هذا القصد على بعد المزار ونأي الديار، أترى الدعوات تهفو على الكعبة مع هذا النسيم، والصلوات تتنزل عليها في هذا الضوء، وأسراب الآمال طارت من المغرب والصين لتطوف مع الطائفين..

أترى سوداوات القلوب اجتمعت فكانت هذا البناء... انظر فلا أجد في هذا البناء تمثالاً ولا وثناً ولا صورة ولا نقشاً، إنما هو التوحيد في خلوصه، والعقيدة في يسرها، والإسلام في فطرته، بيت لعبادة الله يؤمه عباد الله، تجتمع حوله القلوب وتلقي فيه الدعوات، بيت من التوحيد يحس، وبناء من الأخوة يلمس.. ما أروع هذا

مشهداً، صلاة ودعاء، وطواف وبكاء، يسيل بها الإصباح والإمساء".

في المدينة المنورة:

في الخامس عشر من ذي الحجة، توجه د. عزام ورفاقه تجاه المدينة المنورة، وبعد مسير سبع ساعات بالسيارة وصلوا إلى "رابغ" وهي قرية ذات نخل تلتقي فيها طرق جدة ومكة والمدينة.. ثم استأنفوا المسير فباتوا في "أبيار بن حصان ثم غدوا سائرين إلى أن نزلوا بـ"المسيجيد".. ثم واصلوا الرحلة إلى "آبار علي"، وهي ذو الحليفة ميقات أهل المدينة، ومنه أحرم النبي صلى الله عليه وسلم لحجة الوداع.. " ثم سرنا فلاحت لنا المدينة المنورة تتوجها القبة الخضراء، كأنما تباهي على صغرها السماء، أهذه نضرة الإيمان في هذه البقعة، أو ازدهار الآمال في هذه الساحة.. ودخلنا المدينة من الباب الشامي، حيث محطة سكة الحديد الحجازية، وحططنا رحالنا في "المدرسة السعودية" وقد أعدت لنزولنا، ثم سارعنا نتأهب للموقف الجليل، للساعة التي تعرج فيها الروح من الأرض إلى السماء، ذلكم المسجد النبي في بهجة النور والإيمان، يدوي بالمصلين والداعين والقارئين، ولكن الواقف إزاء الحجرة النبوية لا يرى من هذا الجمع أحداً ولا يحس من هذا الدوي همساً، لا يرى إلا هذا الجلال ولا يسمع إلا هذا الوحي، وإنما هي وقفة يمحى فيها الزمان والمكان فيتصل الأزل بالأبد والسماء بالأرض، يا لك بقعة صغيرة لا يدرك العقل مداها ولا يبلغ الفكر منتهاها..".

ويستطرد د. عزام في تسجيل خواطره تجاه "الحجرة النبوية" مسافراً بفكره في أرجائها، ومحلقاً في أجوائها، وكأنما طوي الزمان

وزويت الأرض واجتمعت الإنسانية وحشر البر والحق ومكارم الأخلاق في هذه الحجرة.. ويصفها بالكوكب المضي.. ومنبع النهر العظيم المتدفق بالحياة، مانحاً بركته وخيره للأجيال تلو الأجيال.. "يا حيرة الوصف وعجمة البيان.. أهي عنوان كتاب انطوى على الحق والصدق، والخير والإحسان والمرحمة.. أم هي تاريخ لا يزال الدهر يكتب صفحاته، وإنما أوله وحي الله وآخره غيب الله"، فكل صلاة وكل دعاء يرتفع إلى الله، وكل سعي إلى الخير، وكل كلمة حق ودعوة صدق.. هنا منبعها ومن هذه البقعة وحيها.. "موقف يتضاءل في جلاله كل جلال، ويصفو في جماله كل جمال، لمحات تطهر فيها النفس من أرجاسها وتبرأ من أهوائها وتسمو على شهواتها وتخلص من أغلالها.. وكأنما تخلق خلقاً جديداً وتفتح في أعمالها صفحات جديدة"[1].

---

[1] - عرفة عبده علي، مجلة الحج والعمرة، صفر، ١٤٢٨هـ، ص: ٣٩- ٤١.

عباس محمود العقاد[١]

(١٨٨٩م- ١٩٦٤م)

زار عباس محمود العقاد(١٨٨٩م- ١٩٦٤م) البلد الحرام وسجل انطباعاته ومشاعره، فقد وقف العقاد وقفة شاعرة أمام جبل " حراء" فقال: إنه يشمل الغار الكريم، وهو قمة مرتفعة في جبل، كأنما بنيت بناء على شكل القبة المستطيلة إلى الأعلى، ولكنها عسيرة

---

١ - كان العقاد واسع الثقافة والمعرفة، قوي الشخصية، شديد الرأى، واضح البيان، رائع الأسلوب، ومتعدد الجوانب، و درس الكتاب الغربيين، والعرب القدماء، ومال إلى التحليل، فكان الكاتب السياسي والناقد المؤرخ والشاعر، ولد في"أسوان" سنة ١٨٨٩م وتلقى دراسته الابتدائية في كتاب بلدته، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية، فالمدرسة الثانوية، وسافر إلى القاهرة وهو في الرابعة عشرة من عمره، ومال إلى اللغة الإنجليزية منذ وقت مبكر فأتقنها، ولم يكمل تعليمه في المدارس والمعاهد الرسمية، بل كان منقطعاً عن التعليم النظامي، وعكف على المطالعة، وأتم دراسته معتمداً على ذهنه الخصب، ومطالعته واسعة الآفاق، واتصاله برجال الفكر، ثم التحق ببعض الوظائف الرسمية ردحاً من الزمن، ثم تركها، وانقطع إلى الصحافة والكتابة، فكتب في "الجريدة"و "الدستور" و "البيان"و " الأهالي" و "الأهرام" و "البلاغ"و "المقتطف" و "الهلال" وكانت علاقته بإبراهيم عبد القادر المازني، وعبد الرحمن شكري، وصارت هذه الصداقة مدرسة أدبية للشعر والنقد عرفت بمدرسة الديوان، وفي سنة ١٩١٢م ألحق موظفاً بديوان الأوقاف، ومن عام ١٩١٢م إلى عام ١٩١٤م ظل يكتب فصولاً نقدية في مجلة" عكاظ"، ثم اتجه خلال نشوب الحرب العالمية الأولى إلى التدريس في المدارس الحرة، ثم وصل نائباً إلى البرلمان الذي تشكل برئاسة سعد زغلول عام ١٩٢٦م، وكتب العقاد في السياسة، والأدب، والفلسفة، والاجتماع، والتراجم والسير، وقام بتحليل الشخصيات، وهو كثير التآليف، تشكل كتبه مكتبة كاملة في كل فن من الفنون، إلا أن عبقرياته نالت شهرة عامة، وقبولاً كبيراً، وكذلك كتابه في نقد الاشتراكية، ونال العقاد في سنة١٩٦٠م جائزة الدولة التقديرية في الآداب تنويها بأعماله الأدبية.

المرتقى، لا يبلغها المصعد فيها إلا من شعاب وراء شعاب.

ويقول العقاد: " أخبرني من صعدوه أنهم كانوا يعانون شديد العناء من وعورة مرتقاه، وأن القليل من الناس يصمد في صعوده إلى نهايته العليا، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم، يتنسك ويبتهل إلى الله.

مررنا بالجبل عابرين كما كان سكان البلاد يمرون به، غادين أو رائحين في غفلة عن ذلك الرجل المفرد الذي يأوي إليه ويسكن إلى غاره، كانوا في غفلة عن ذلك الرجل المتوحد في سبيل التوحيد، كما كان العالم كله في مثل تلك الغفلة وفي مثل هذه الظلمات، لقد كانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور، فلما انقضت مدتها لم يتبق في الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغار، أو جاهل بآثار تلك الساعات التي يقضيها بالليل أو النهار".

وعن ذهاب الرسول إلى الغار قبيل البعثة مرات ومرات، قال العقاد: " كل مرة من تلك المرات تترجم لنا عن قوة تلك البواعث الشريفة المحتدمة في نفسه عليه السلام، وترينا كيف بلغت هذه البواعث المحتدمة، أن تدفع بالعالم كله إلى طريق غير طريقه، وإلى غاية لم تكن له من قبل في حساب، فلولا لاعج من الشوق الإلهي ينهض بالروح والجسد نهضة لا تصبر عليها طبيعة البشر، لما توالت تلك المصاعد ولا تعاقب ذلك العكوف، وعلى هذا النحو الذي يجمع بين شاعرية الروح، وجلال الفكرة، أشار الكاتب الكبير في تسجيل خواطره الصادقة، نحو غار حراء، وقد أوجز فيما أرى وكان من حقه أن يطيل!

وينتقل العقاد إلى موقف آخر من مواقف الخلود في مكة! هو مكان الدعاء الذي اختاره الرسول في ساحة الكعبة، ليرفع فيه ابتهاله إلى الله، فقال عن هذا المكان مخاطباً القارئ: أنت هنا تقف حيث وقف الرسول، وتدعو حيث دعا، وتنظر حيث نظر، وتحوم بنفسك حيث حام في اليقظة لا في المنام!

أنت هنا لا ريب في مقام قام فيه الرسول الكريم، ذلك السر السرمدي الذي تتعلق به مصائر الأمم، ومقادير التاريخ، وضمائر بني الإنسان، ذلك الإنسان الذي يقترن اسمه في صلوات الألوف بعد الألوف، باسم خالق الكون العظيم.. قيل لنا: هنا يستجاب الدعاء! قلنا نعم: هذا أخلق مكان أن يستجاب فيه الدعاء، وقد ألهم الله كلاً من الواقفين أن يدعو دعاءه. وأن يستجمع في الدنيا والآخرة رجاءه، فساق الله إلى لساني هذه الدعوة، فدعوت: الله أوليني ما أريد لي وللناس، واجعل الخير كل الخير فيما أريد لي وللناس!"[1].

---

[1] - محمد رجب البيومي، مجلة الحج والعمرة، شوال، ١٤٢٧هـ، ص: ١٥- ١٦.

الدكتور أحمد حسن الزيات[١]

(١٨٨٥م- ١٩٦٨م)

صاغ الدكتور أحمد حسن الزيات(١٨٨٥م- ١٩٦٨م) رحلته ومشاعره في الحج ووصف ذلك وصفاً أدبياً بليغاً حيث يقول:

أذن هلال ذي الحجة في المسلمين بالحج فأتوا بيت الله من كل فج عميق، ومن كل قطر سحيق، رجالاً وعلى كل ضامر، وفوق كل عائم وطائر، ليشهدوا المؤتمر الإسلامي الإلهي الذي فرض الله شهوده على كل مسلم مرة في العمر، ليؤلف القلوب في ذاته، ويؤاخي الشعوب في نسب الحق، ويستعرض علائق الناس في كل

---

[١] - هو صاحب "الرسالة" أديب من كبار الكتاب، مصري، ولد بقرية كفر دميرة القديم، في طلخا، ودخل الأزهر قبل الثالثة عشرة، وفصل قبل إتمام دراسته، وعمل في التدريس الأهلي، فعلم العربية في مدرسة "الفرير" نحو سبع سنوات، وتعلم مدة في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة، ودرس الأدب العربي في المدرسة الأميركية بالقاهرة عام ١٩٢٢م ثم في دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٢٩م وأقام ثلاث سنوات صنف فيها كتابه "العراق كما عرفته" واحترق الكتاب قبل نشره، وعاد إلى القاهرة، فأصدر مجلة "الرسالة" سنة ١٩٣٣- ١٩٥٣م، ثم إلى جانبها "الرواية" وأغلقهما، وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعين في المجلس الأعلى للآداب والفنون، وكان قبل ذلك من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، ونال جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٢م ثم أعاد الرسالة سنة ١٩٦٣م، فلم تكن لها مكانتها الأولى، فاحتجبت وانقطع إلى تحرير "مجلة الأزهر" سنة ١٣٧٢- ١٣٧٤هـ، وتوفي بالقاهرة، وحمل إلى قريته فدفن فيها، وأول ما علت به شهرته، كتابه "تاريخ الأدب العربي" ثم كان من كتبه المطبوعة "دفاع عن البلاغة" "وحي الرسالة" أربعة أجزاء، و"في أصول الأدب" و"في ضوء الرسالة"، وترجم عن الفرنسية "آلام فرتر" لجوته، و"روفائيل" للامارتين، وكان من أرق الناس طبعاً، ومن أنصع كتاب العربية ديباجة وأسلوباً، وللسيد جمال الدين الألوسي كتاب "أدب الزيات في العراق".

عام، فيوشجها بالإحسان، ويوثقها بالتضامن، وينضج من منابعه الأولى على الآمال الذاوية فتنتصر، وعلى العزائم الخابية فتذكو، ثم يجمع الشكاوى المختلفة من شفاه المنكوبين بالسياسة المادية والمدنية الآلية والمطامع الاستعمارية فيؤلف منها دعاء واحداً تجأر به النفوس المظلومة.

وما أحوج المسلمين اليوم شهود هذا المؤتمر، لقد طالما حصرهم المستعمرون في أوطانهم المغصوبة ثم قطعوا بينهم الأسباب، وحرموا عليهم التواصل، وفصلوا حاضرهم عن الماضي الملهم، والمستقبل الواعد بطمس التاريخ، وقتل اللغة، وإطفاء الدين، فلم تكن لهم جمعة إلا في موسم الحج لو خلوا بينهم وبينه، ويسروا لهم اللقاء فيه، ولكن الحوائل كانت تحول في العلن، والحبائل كانت تنصب في السر، فلم يكن للحج تلك الحكمة التي أرادها الله من شرعه، ولا للمسلمين تلك الرادة التي يردها عليهم من نفعه.

كان ذلك والشمل شتيت، والرأي مختلف، والقوة مبعثرة، والوطن محتل، والإرادة أجنبية، فلما خشع الاستعمار، وخضع البغاة، وجلا الدخيل، وأصبح الحكم خالصاً للإسلام في الدول العربية، لم يعد يفصل بين المسلم وأخيه من المغرب إلى المشرق إلا تخوم جغرافية ورسوم سياسية لا تقطع قلباً عن قلب، ولا تمنع يداً عن يد، ولا تحبس لساناً عن لسان، ولا تحول بين إخوة النسب وإخوان العقيدة أن يتلاقوا في ميقات الله على أم القرى ليذكروا اسمه جل وعز في أيام معلومات على ما أفضل عليهم من نعمة الإسلام، ووحدة الإيمان، وإجابة إبراهيم، وتفدية إسماعيل،

وبعثة المصطفى خاتم الرسل وفاتح العالم الجديد".

ويفيض في الحديث عن الحج ويدعو إلى التأمل في ذلك، حيث يتميز أسلوبه بالدقة وحب الوصف الأدبي حيث يقول: إن الحج والزكاة هما الزكنان الاجتماعيان من أركان الدين، يقوم عليهما الأمر بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، كما يقوم على الثلاثة الأركان الأخرى: الأمر بين المرء وربه، وبين المرء وقلبه، فالزكاة تقيم نظام المجتمع على التعاطف والرحمة، والحج يقيمه على التعارف والألفة، فيحقق الأول معنى الإخاء بنفي العقوق، ويحقق الآخر معنى المساواة بمحو الفروق، والإخاء والمساواة شعار الإسلام وقاعدة السلام، وملاك الحرية، ومعنى المدنية الحق، وروح الديمقراطية الصحيحة".

ولقد ثارت في نفس الأستاذ الزيات الذكريات، حيث يغمره شعور ديني يهز القلب، ويخفق له الفؤاد حيث يقول: " كان الحج ولا يزال مطهر الدنيا، يرحض عن جوهرها أوزار الشهوات وأوضار المادة.

وكان الحج ولا يزال ينبوع السلامة، تبرد عليه الأكباد الصادية، وترفه لديه الأعصاب المرهفة.

وكان الحج ولا يزال مثابة الأمن، تأنس فيه الروح إلى موطن الإلهام، ويسكن الوجدان إلى منشأ العقيدة، وينبسط ا لشعور بذلك الإشراق الإلهي في هذه الأرض السماوية".

وفي تصوير أدبي يقول: " وكان الحج ولا يزال موعد المسلمين في أقطار الأرض على عرفات، يقفون سواسية أمام الله حاسري

الرؤوس، خاشعي النفوس، يرفعون إليه دعوات واحدة في كلمات واحدة، تصعد بها الأنفاس المضطرمة المؤمنة تصعد البخور من مجامر الطيب، أو العطور من نوافح الروض، هناك يقف المسلمون في هذا الحشر الدنيوي حيث وقف صاحب الرسالة، وحواريو النبوة، وخلفاء الدعوة، وأمراء العرب، وملوك الإسلام، وملايين الحجيج من مختلف الألوان والألسن، فيمزجون الذكرى بالذكر، ويصلون النظر بالفكر، ويذكرون في هذه البقعة المحدودة، وفي تلك الساعة الموعودة، كيف اتصلت هنا السماء بالأرض، ونزل الدين على الدنيا، ونبتت من هذه الصحراء الجديبة جنات الشرق والغرب، وثمرات العقل والقلب، وبينات الهدى والسكينة".

وفي هذا الفيض من الشعور يسترسل في الحديث قائلاً: " إن في كل بقعة من بقاع الحجاز أثراً للفداء، ورمزاً للبطولة، فالحج إليها إيحاء بالعزة، وحفز إلى السمو، وحثّ على التحرر، وتذكير بالوحدة، هنا غار حراء مهبط الوحي، وهنا دار الأرقم رمز التضحية، وهنا غار ثور منشأ المجد، وهذا هو البيت الذي احتبى بفنائه أبو بكر وعمر وعلي وعمرو وسعد وخالد، والغطاريف من بني هاشم، وبني أمية، وتلك هي البطحاء التي درج على رمالها قواد العالم وهداة الخليقة"(١).

---

١ - عبد الله بن حمد الحقيل، مجلة الحج والعمرة، محرم، ١٤٢٨هـ، ص: ٧٠- ٧١.

الأديب يوسف إدريس[١]

(١٩٢٧م- ١٩٩١م)

قد وصف الأديب يوسف إدريس (١٩٢٧م- ١٩٩١م) في رحلته الحجازية مشهد الطواف حول الكعبة وجموع المسلمين من شتى الأجناس ومختلف الألسنة، وصف ذلك كله وصفاً صادقاً ومعبراً، حيث يقول:

"كنت أطوف بالكعبة وأرى الناس سوداً بيضاً، صينيين أوروبيين، مشارقة ومغاربة، من نيجيريا إلى إندونيسيا، نلتف جميعاً حول الكعبة ونصلي المغرب، يا له من مشهد غريب فريد في بابه،

---

[١] - هو علامة بارزة في الإبداعي العربي المعاصر، شغل الحياة الأدبية والثقافية على مدى أكثر من أربعين عاما بمواقفه الجدلية وآرائه الجريئة التي حصد منها كثيراً من الآلام، فقد عرفته الحياة الثقافية منذ بداية الخمسينيات من القرن المنصرم، قاصاً من خلال ما كان ينشره من القصص القصيرة بالدوريات الأدبية. ولد في قرية البيروم مركز فاقوس بمحافظة الشرقية، ودرس الطب في القاهرة، وتخرج عام ١٩٥١م فعمل في المستشفيات الحكومية، إلا أن اهتمامه بالأدب حال بينه وبين ممارسته مهنة الطب، وحين بدأ يوسف إدريس كتابة القصة القصيرة عام ١٩٥٠م أثناء دراسته في كلية الطب، لم يكن دارساً لفن القصة، ولا عارفاً بإنجازات الكتاب الروّاد، ولكنه كان مسلحاً بما هو أكبر من كل الدراسات، وأهم من كل المعارف المدونة، كان مسلحاً بموهبة كبيرة على القص التلقائي الآسر، وبمعرفة حميمة بتيارات الثقافة التحتية، أي الثقافة بمعناها الاجتماعي الشامل، وليس بتعريفها الأدبي الضيق، بدأ ينشر قصصاً قصيرة في الصحف منذ عام ١٩٥٠م حتى صار أحد أهم كتاب القصة القصيرة على الإطلاق، وقد ترك للمكتبة الثقافية العربية رصيداً كبيراً من الإبداع وصل إلى اثنتي عشرة مجموعة قصصية وثماني روايات وسبع مسرحيات وخمسة عشر كتاباً تتضمن مقالات مختلفة له.

يشرح القلب، آلافاً مؤلفة من الناس يحمدون الله ويركعون ويسجدون ويسبحون ويستغفرون، كان منظرهم يخلع القلب فرحاً، ويجعلك تنتقل من انتماءاتك المحدودة في عائلتك أو في بلدك إلى انتماء أشمل وأكبر. إنه ا لانتماء الأكبر، انتماء إلى المحيط الإسلامي الواسع، حيث تحس بآلامك ومخاوفك، تذوب تماماً في هذا المحيط وتبدأ نفسك كالماء المعكر بالطين حين يروق ويروق حتى يصبح أصفى من الماء المقطر، من نقاء وكحلاوة ماء زمزم.

الروضة الشريفة:

ثم انتقل الكاتب إلى وصف الروضة الشريفة، وتدافع الزائرين إلى إلقاء التحية والسلام على صاحب الروضة المعصوم فيقول: "وقفت أمام مقام الرسول الكريم وجموع المسلمين تتدافع لتلقي على بابه وعلى مقامه نظرة شوق طال، وشفاعة مكتومة في النفس، كل منهم يبوح للرسول بمكنون قلبه وبدعاء له ولوالديه ولأولاده وعائلته، ومثلما كانوا يدعون دعوات، ولم يكن الدعاء سهلاً. فقد كان علي أن أفرغ نفسي تماماً من كل اهتماماتها الشخصية والدنيوية، كان علي أن أطهر قلبي وأفسح صدري وأمسح كل ما يزدحم في رأسي من قلق، ولم يكن الأمر سهلاً، فما كان يشغلني عمره أحقاب وأحقاب، من المستقبل، من تشاؤم يكاد يطبق على بصيرتي وبصري. كان علي أن أتطهر وتعود نفسي بريئة كنفوس الأطفال الرضع، جديدة كأم لم يمسها سوء ولا فعلت سوءاً".

حلاوة الإيمان:

وفي هذا المكان الذي هو روضة من رياض الجنة، شعر يوسف إدريس بالاطمئنان، وأحس بالأمان، وذاق حلاوة الإيمان، فقد أحاطته الرحمات وتنزلت عليه السكينة، فراح يتذكر إخوانه وأهله الذين تركهم وراءه في بلده وموطنه، فاستغرق في الدعاء لهم ولأهاليهم أجمعين، فيقول: "صليت ركعتين في الروضة الشريفة، وارتكنت إلى عامود من أعمدة الحرم النبوي الشريف، أرقب الإيمان مجسداً على الوجوه، يا لحلاوة الإيمان حين يكسب الوجه البشري جمالاً نابعاً من القلب وموجهاً إلى المولى سبحانه.

وجاءتني مصر وأنا مرتكن أمارس متعة الابتهال بلا صوت، تأمل بلا انقطاع، جاءتني مصر بشعبها، ومشكلاتها، بحاضرها ومستقبلها، ورحت أدعو للشعب المصري، بنى وطني والمسلمين جميعاً أن يزيد الله لهم، إنه القادر القوي المعين.

وأبدى خواطره حول كيفية الدعاء بقوله: "ما فائدة أن أكون قد دعوت لعائلتي ولنفسي أن يخلصنا من أزماتنا وقلقنا، ونحن نحيا مع شعب واقع في الأزمات والقلق، ما فائدة أن تكون سعيداً صحيحاً في مجتمع يعاني.

ما فائدة أن يرزقك الله بالملايين في شعب يعيش على حافة الفاقة، إن المسلم الحقيقي لا يسعد إلا في مجتمع مكتمل السعادة ترفرف فيه السكينة على الجميع وظللت أدعو وأدعو حتى وجدتني أبكي بكاء لم يحصل لي من قبل، فهو ليس بكاء حزن وليس بكاء إشفاق على

النفس والشعب، وليس بكاء مذلة وإحساس بالضيم، ولكنه بكاء المحب لحبيب، البكاء الواصل بين الله سبحانه والإنسان، البكاء المستلهم من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، بكاء المتأمل في الآيات البينات التي أوحي له بها وغمرت الدنيا من أقصاها إلى أقصاها".

استمر يدعو ويدعو باستمرار وبلا توقف، يدعو لنفسه وللآخرين معاً، فقال: يا رب لا تمنحني الصحة وشعبي مريض. ولا تمنحني الرزق الوافر وشعبي يشكو الفاقة، ولا تمنحني سلامة النفس وشعبي يطحنه القلق. وأنزل اللهم السكينة على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.. يا لها من آية كريمة معجزة المعنى، فقد ظللت أرددها دون أن أعي، وكأنما بقدرة قادر بإملاء قادر رأيتني أردد بلا توقف: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ" [الفتح: ٤].. فأنزل اللهم السكينة على قلوبنا، وألهمنا الصواب، وأخرجنا بفضل قوتك ورحمتك من مآزقنا وهيئ لنا من أمرنا رشداً. إنك أنت السميع المجيب الوهاب"[١].

---

[١] محمدعبد الشافي القوصي، مجلة الحج والعمرة، رجب، ١٤٢٧هـ، ص:١٨- ١٩.

الدكتورة عائشة بنت عبد الرحمن الشاطئ[١]

١٩١٣- ١٩٩٨م

تقول الدكتوراه عائشة، وهي تصف دار الهجرة:

"مع التاريخ كان مسعانا من أم القرى إلى دار الهجرة.

صلينا الظهر في المسجد الحرام، وحملتنا الطائرة من جدة بعد

[١] - هي من كبرى الأديبات المسلمات الملتزمات في العصر الحديث، وقد أثرت المكتبة الإسلامية بكتاباتها وبحوثها، وقضت حياة حافلة بالعطاء العلمي والأدبي، ولدت على شاطئ النيل في عام ١٩١٣م، تلقت التعليم الابتدائي في بيتها، وحفظت القرآن الكريم، وبعد حفظ القرآن الكريم علّمها والدُها المبادئ الأولية لعلوم العربية والإسلام في مكتبه في جامع البحر، ثم حصلت على شهادة الابتدائية في العاشرة من عمرها، وأتمت تعليمها في المدرسة الراقية بنجاح، ثم التحقت بمدرسة المعلمات بالمنصورة، وأدت امتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا، فكانت أولى الناجحات في مصر كلها، ثم عملت بمدرسة للبنات بالمنصورة، وتعلمت اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، ثم نقلت إلى كلية البنات بالجيزة، وأثناء تدريسها بمدرسة المنصورة واصلت الكتابة في الصحف والمجلات، فقد نشرت لها مجلة" النهضة النسائية" مجموعة من القصائد والمقالات، وقد نشرت لها مجلة"الهلال" التي كانت في ذلك الحين تنشر إنتاج الأعلام من الكتاب والشعراء و"صحيفة البلاغ" و"كوكب الشرق" ما أرسلته إليها من قصص ومقالات باسم بنت الشاطئ، وبه عرفت منذ عام ١٩٣٣م. حصلت على شهادة البكالوريا ثم الماجستير في ١٩٤١م، وكانت رسالتها عن "الحياة الإنسانية لأبي العلاء" للدكتوراه في عام ١٩٤٤م من كلية الآداب، وكان موضوعها "دراسة نقدية لرسالة الغفران"، وقد صدر لها كتاب" الريف المصري" وعرفت به في الأوساط العلمية، وشاركت بنت الشاطئ في المواسم الثقافية التي أقيمت في سوريه، والعراق، والكويت، والأردن، وفلسطين، والجزائر، والسودان، والمغرب، وأبوظبي، وباكستان. و من مؤلفاتها الشهيرة: أم النبي، نساء النبي، بنات النبي، مع المصطفى عليه السلام، تراجم سيدات بيت النبوة، القرآن وحقوق الإنسان، قيم جديدة لأدبنا القديم والمعاصر، الإعجاز البياني للقرآن، القرآن وقضايا الإنسان وأرض المعجزات.

صلاة العصر، فأدركنا صلاة المغرب مع الجماعة في مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وبتنا ليلتنا، وليالي بعدها في جوار الحبيب المصطفى، تتبعنا حيث أقمنا رعاية خادم الحرمين الشريفين الملك العاهل فيصل ومودة ابنه الأمير الشاعر عبد الله، ويسعى بين أيدينا صحبة كرام من جيرة الحرم المدني، مرحبين مكرمين.

هذه الرحلة المريحة التي لم تستغرق أكثر مما بين عصر ومغرب، على متن طائرة تنقلنا في يسر ورخاء على بساط الريح.

أرهفت وعينا لحديث التاريخ عن رحلة المصطفى صلى الله عليه وسلم من دار مبعثه في أم القرى، إلى دار هجرته في يثرب.

أبصارنا مشدودة إلى الطريق الوعر في الصحراء، وتلتمس من عل موضع غار ثور، بأعلى مكة، حيث آوى المهاجر مع صاحبه الصديق، ريثما تهدأ المطاردة الشرسة من طواغيت قريش.

ولبثا فيه ثلاث ليال، والمطاردون يعُدون في أثرهما، وقد بلغوا غار ثور فتلبثوا عنده وهموا بأن يدخلوه، لو لا أن صدهم عنه نسيج عنكبوت على فتحته، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه.

قال الصديق للمصطفى: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا.

وقال صلى الله عليه وسلم: " لا تحزن إن الله معنا".

وفي هدأة المساء من الليلة الثالثة، خرج الصاحبان على حذر، مع دليل ثقة بمجاهل الفلاة، وسرى الركب آخذاً طريق الجنوب من أسفل مكة، وكان غير مطروق.

الطريق الوعر يتراءى لنا من نوافذ الطائرة، بل مخاطره ومصاعبه.

والتاريخ معنا، يرنو إلى المهاجر ويتبع خطاه إلى حيث حط رحله في دار هجرته، واصلاً إليها من "قباء".

وفي أهل المدينة، اجتلينا ملامح أجدادهم الأنصار الذين احتشدوا لاستقبال نبيهم عليه الصلاة والسلام.

وفي أصواتهم، رجع صدى من هتاف مستقبليه حين أهلت عليهم طلعته المشرقة بسنا النبوة، وذكروا له نعمة الله الذي جمعهم أهلاً وعشيرة وأنصاراً لله ورسوله، ونسخ ما كان بينهم من ثارات حروب ضريت فيهم على امتداد خمسة قرون قبل المبعث، وسهرت عليها عصابات يهود، تؤجج لهبها بوقود الفتنة والدس والوقيعة والبغضاء..

المسجد النبوي يأخذ القلوب والأبصار بجلاله وبهائه، وسعة رحابه وشموخ مبناه.

الأجيال من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قد أغدقت عليه من حبها ما لم يظفر بمثله مثوى بشر، وبذلت له من جهدها وفنها ومالها، في أريحية وسخاء، وجلبت له من ديار الإسلام نادر الرخام والمرمر وثمين الخشب، وأضأته بالثريات البديعية، وفرشت رحابه بفاخر البسط والسجاجيد، نسجتها أيدي مهرة الصناع من إيران المسلمة.

وبقيت وتبقى روح المكان بكل أصالتها وعراقتها، كأن لم تمسسه يد منذ شهد التاريخ مبنى هذا المسجد في إثر الهجرة.

كان وصوله صلى الله عليه وسلم إلى دار هجرته، قبيل الظهر من يوم الإثنين، وقد مضت إثنتا عشرة ليلة من ربيع الأول، في السنة الثالثة عشرة للمبعث.

وفي "قباء" بظاهر المدينة أقام أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء

والخميس، أسس فيها أول مسجد في الإسلام.

ثم ركب ناقته القصواء يوم الجمعة، وسط حشد من المهاجرين والأنصار، فأدركته صلاة الجمعة في حي بني عوف بن سالم، فصلى بالصحابة أول جمعة بالمدينة المنورة.

وأرخى العنان لناقته وهي تشق أمواج الزحام، ولا أحد يدري يومها أين يكون منزل المصطفى، وكل بيوت المدينة مفتوحة له، وإن لم يكن له دار هناك.

وبدا الموقف صعباً، كلما مر عليه الصلاة والسلام بحي من أحياء الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف النزول فيهم، وهو يتحرج من إيثار حي على آخر دار علي دار، فيقول معتذراً شاكراً:

" خلوا سبيل ناقتي".

وقد خطت القصواء روئيداً تشق الزحام حتى وصلت إلى مربد هناك لسهل وسهيل ابنى عمرو، فوقفت وأناخت على المربد.

وحيث بركت الناقة، أمر المهاجر صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجده: ثاني الحرمين ومزار المسلمين على مر السنين والدهور.

وتنافس المهاجرون والأنصار في بنائه بما تيسر من مواد، اللبن والجريد والليف، وبعض الحجارة والخشب، والمصطفى معهم يشارك ويعين، داعياً للمهاجرين والأنصار.

ولم يستغرق بناؤه أكثر من أيام معدودات، ومن حوال المسجد بنيت تسع حجرات تفتح على ساحته، لتكون دار المصطفى المهاجر.

وكان مبنى المسجد والحجرات بسيطاً متواضعاً، بعضه من حجارة مرصوصة، وبعضه من جريد يمسكه الطين، والسقف كله من جريد،

يناله بيده غلام مراهق.

وشُدت خشبات بالليف، فكانت سريراً لخاتم النبيين عليهم السلام.

وغير بعيد عن المدينة والحجاز، كانت قصور الحكام والأمراء والأثرياء، في الحيرة وغسان واليمن، وفي فارس ومصر والحبشة، تعلو سامقة شامخة، ساطعة، ببريق البذخ والترف، فتخطف أبصار الدنيا عن ذلك المبنى البسيط المتواضع الذي لم يلبث سنا جلاله أن كسف أضواء كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصر وفرعون، ونجاشي، وملك، وإمبراطور.

وتمضي الأعوام والقرون، توسع من رحابه وتسخو في العناية به، وهو بجوهر شخصيته وروح أصالته، كيوم بناه المهاجرون والأنصار.

وإنه ليغض اليوم من ناطحات السحاب وقصور ملوك المال، كما غض في الماضي من قصور القياصرة والأكاسرة والأباطرة..

لياليا بدار الضيافة في جوار المسجد النبوي، كانت ساهرة مع التاريخ، تؤنسها أطياف المهاجرين في أول عهدهم بالمدينة، وتتمثل مجلس المصطفى في الروضة الشريفة، المدرسة الأولى التي تخرج فيها تلاميذ مدرسة النبوة من الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم.

ونطوف في النهار بمعالم المدينة وضواحيها، والتاريخ معنا شاهد ودليل.

هذه "قباء" على العهد بها، تستقبل أفواج الزائرين في مسجدها، أول مسجد بني في الإسلام.

وهذه بدر، تعيد ذكرى يومها الخالد، حيث كانت الجولة الأولى

من الصدام المسلح بين الإسلام والوثنية، وفيها تحددت موازين القوى في كل معركة بين حق وباطل.

وهذا جبل أحد، ويروي حديث يومه المشهود.

وهنا وهناك، حيثما اتجهنا وأنى أقمنا، كانت ذكرى الكتائب الأولى من حزب الله، تجلو لبصيرتنا أروع مواقف البطولة وأمجد مشاهد الجهاد، وتحيي في نفوسنا ذوي الآمال.

وحان أوان الرحيل، فودعنا الحبيب في مثواه، وكأنا نودعه يوم رحل عن دنيانا بعد أن أبلغ رسالته، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين الحق في الآفاق، وأن يحملوا لواءه المبارك الميمون إلى الأقطار من مشرق ومغرب "[1].

---

[1]- أرض المعجزات، ص: ١٦٥، طبع: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان ١٣٩٢هـ.

الشاعر محمود غنيم[١]

(١٩٠٢م- ١٩٧٢م)

صاغ الشاعر محمود غنيم (١٩٠٢م- ١٩٧٢م) رحلته للحج في ثلاث قصائد ضمن ديوانه "رجع الصدى" وحملت تلك القصائد عناوين " في أرض النبوة" و"حمائم الحرم" و" تحية وقضية" ذهب إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، ومن وحي زيارته للأراضي المقدسة نجده يبث المكان أشجانه، ويشتاق إلى المشاعر المقدسة، وقد بدا ذلك جلياً في قصيدته "في أرض النبوة"

---

[١]- هو شاعر مصر الاجتماعي الأول، صادر عن إحساس عميق وعاطفة جياشة. ولد عام ١٩٠٢م في قرية مليج بمحافظة المنوفية بمصر، وعاش وسط أسرة تتمتع بسمعة طيبة، وتحترف الزراعة والتجارة، ثم بدأ حياته العلمية في الكُتّاب لينهل من علوم العربية والعلوم الشرعية، وحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ علي عيسى في قريته، وفي الثالثة عشرة من عمره التحق بمعهد طنطا الأزهري، ومكث فيه أربع سنوات ثم التحق بمدرسة القضاء، حيث مكث فيها ثلاث سنوات (١٩١٩- ١٩٢٣) وقبل أن ينهي دراسته فيها تمَّ إلغاؤها، فالتحق بالمعاهد الدينية (١٩٢٣- ١٩٢٤م) ونال منها الشهادة الثانوية، وعين مدرساً في المدارس الأولية في بعض القرى، منها كوم حمادة التي عمل بها تسع سنوات مدرساً في مدرستها الابتدائية. وفي عام ١٩٣٨م صدر قرار بنقل الشاعر محمود غنيم إلى القاهرة مدرساً للغة العربية، اختير لمدرسة "الأورمان" المشهورة، وفي القاهرة عاش مع الشعراء والأدباء ودور النشر والصحف والمجلات، وفي مقدمة هذه المجلات "مجلة الرسالة التي كانت تنشر له آنذاك شعره باحتفاء كبير، وقد رقي إلى منصب "مفتش" للغة العربية، وأخيراً وصلت بالشاعر خطاه إلى منصب "عميد اللغة العربية" بوزارة التربية والتعليم، وكان ذلك آخر عهده بالمناصب. واختير عضواً بلجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، حتى ذاع صيته ولمع نجمه وبات من المرموقين في عالم الأدب بوجه عام والشعر بوجه خاص، كما نال كثيراً من الجوائز على أعماله الشعرية التي كان من أهمها ديوانه "صرخة في واد"، الذي كان أساس صرح مجده الشعري، ونال الجائزة الأولى من المجمع اللغوي بالقاهرة عام ١٩٤٧م.

وقصيدته "حمائم الحرم" وكذلك قصيدته "تحية وقضية"، ففي قصيدة "في أرض النبوة" يقول:

صوت من العالم العلوي ناداني
لبيك لبيك لا آن ولا واني
ما أعذب الصوت! ما أشجاه من نغم
سمعته بجناني لا بآذاني
وكيف تسمعه أذن ويحمله
موج الأثير وهو روحاني
لبيته بفؤاد ملؤه و جل
وصيب من دموع العين هتان
كيف الوقوف على باب الرسول وفي
يدي صحائف زلاتي وعصياني

ثم يوجه خطابه إلى دار النبوة قائلاً:

دار النبوة ذنبي عنك أبعدني
و حسن ظني بربي منك أدناني
قد كنت ألقاك في لوحي وفي كتبي
وفي سطور أحاديثي وقرآني
ما زلت رسماً جميلاً في مخيلتي
حتى كأنا التقينا منذ أزمان
كأنني لست ضيفاً عند أهلك بل
هم في ربوعهم الفيحاء ضيفاني

ويتوجه الشاعر إلى أهل الحرمين الشريفين مبيناً مناقبهم وشرفهم وهم يجاورون حرم الله، وما ورثوه من مجد وشرف وخير كثير، فيقول:

يـا جيـرة الحـرمين الآمنين لكـم
أهدي التحية من روح وريحـان
الله أورثـكم مجـداً يـقـر بـه
قبل الحبيب لسان الحاسد الشاني
والله شـرف مغنـاكـم وشرفـكم
خيـر البقـاع أقـلت خيـر سكان
مـا للشراب وردنـا مـاء زمـزمكم
بـل للطـهارة مـن رجس وأدران
بالله لا تتـرعوا من مائها قـدحي
بل فاغمروا جسدي منها بطوفان

ثم يناجي ربه طالباً غفران ذنوبه، فيقول:

يا رب قد عشت في دنياي مغتـرباً
ويلاه إن اغترب في العـالم الثاني
أستغفـر الله مـن كفـران نعمـته
بل فـوق ما استحق.. الله أعطـاني
ألـم يجـدني أخـا غي فـأرشـدني
وهـائماً غـير ذي مـأوى فـآواني
يـا رب إن كنـت قصـرت في نسكي
فمـا تسـرب شـك نحـو إيمـاني
لبيـك يـا رب لا ألـوك تلبـية
حتـى تمـن عـلى ذنبـي بغـفـران
لبيـك ملء فمي لبيك ملء دمي
لبيك يا رب مـن قلبي ووجـداني

إليك شفعت من ترجى شفاعته
يارب إن خف يوم الحشر ميزاني

ثم يشيد بفضل رسالة الإسلام التي انطلقت من مكة المكرمة ومن المدينة المنورة.. وتمتزج هذه الرؤية الحضارية لدور الإسلام الفاعل والمؤثر في حركة الحياة بمشاعر التضرع والمناجاة، فيقول:

هنا بنى المصلح الأمي جامعة
على أساسين من علم وعرفان
على قواعد من هدي النبوة لا
على قواعد من صخر وصفوان
وكيف لا ورسول الله منشؤها
جل البناء وجل المنشئ الباني

وفي قصيدته "في مكة المكرمة: تحية وقضية"، يوجه نداءه إلى حجاج بيت الله الحرام، ويدعوهم إلى نصرة الإسلام والدفاع عن المقدسات التي استباحها اليهود في القدس، فيقول:

يا من ببيت الله طافوا سبعة
وتنسكوا فيه وفيه تبتلوا
أعلمتموا — وقد استبيحت أرضكم —
أن الجهاد من التهجد أفضل
اليوم قد دخل العدو بلادنا
وغداً علينا في المخادع يدخل (١)

---

١ - مجلة الحج والعمرة، صفر، ١٤٢٨هـ، ص: ٤٨- ٤٩، وراجع: الأعمال الكاملة للشاعر محمود غنيم، دار الغد العربي، ١٩٩٣م.

عمر بهاء الدين الأميري[١]

(١٩١٥م- ١٩٩٧م)

يقول عمر بهاء الدين الأميري(١٩١٥م- ١٩٩٧م) في القصيدة التي كتبها عن "الكعبة" وهو في مكة المكرمة، أول رمضان ١٣٧٣هـ، وكان بجوار الكعبة البيت الحرام وفي ظلال شهر رمضان، فاجتمع عليه

---

[١]- هو مفكر إسلامي كبير، قدم للإسلام والمسلمين وللفكر الإسلامي والعربي أعطيات ثرية حملتها كتبه ومؤلفاته في الفكر والحضارة الإسلامية، ، وهو دبلوماسي وأديب وشاعر سوري مطبوع، نطق بالشعر وهو طفل صغير، حتى صار عميداً للشعر الإسلامي المعاصر، وأطلق عليه بعض الأدباء الألمان الذين قرأوا شعره وخاصة ديوانه "مع الله" لقب "شاعر الإنسانية المؤمنة" وهو غزير الإنتاج، اهتم بالحضارة الإسلامية، حتى عرفته الساحة العربية والإسلامية خلال القرن العشرين كمفكر ومنظر حضاري، يعي هموم الأمة الإسلامية، ويصف الدواء لأدوائها المختلفة. ولد في حلب الشهباء بسوريا سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٥م، وكان رحيله عن عمر يناهز ٧٧ عاماً، في الرياض بالمملكة العربية السعودية سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.. وذلك عندما نقل من المغرب إلى الرياض للعلاج على نفقة الملك فهد – رحمه الله تعالى –، فتوفي بها، ونقل إلى المدينة المنورة حيث دفن بالبقيع. وقد تدرج في التعليم، فدرس المراحل التعليمية الأساسية في مدينة حلب، وسافر إلى فرنسا بعد إنهائه المرحلة الثانوية، والتحق بجامعة السوربون ليدرس الأدب وفقه اللغة، فلما عاد إلى سوريا، اشتغل بالتدريس، وتولى إدارة المعهد العربي الإسلامي في دمشق، ثم عمل بالمحاماة بعد حصوله على شهادة الحقوق من الجامعة السورية بدمشق سنة ١٩٤٠م، وكان يشترط على موكليه أن يتخلى عن دعاويهم إذا ظهر وجه الحق في غير جانبها. واشتغل بالحركة الإسلامية منذ نعومة أظفاره، وأسس مركزاً للدعوة الإسلامية في باريس، كما أسهم في انطلاقة العمل الإسلامي المعاصر، واتصل بكثير من مراكزه، وتولى بعض مسئولياته. وقد شارك الأميري في الدفاع عن القدس خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، حيث تطوع في جيش الإنقاذ مقاتلاً في كتيبة المجاهدين السوريين، وعاش القضية الفلسطينية واكتوى بنارها واتصل بمفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، وقد عمل وزيراً في وزارة الخارجية السورية في دولة باكستان عام ١٩٥٠م، ثم سفيراً في المملكة العربية السعودية عام ١٩٥٤م، وله مجموعة من المؤلفات والكتب، منها "الإسلام في المعترك الحضاري". وله عشرات الدواوين الشعرية منها: "ألوان طيف" و"مع الله".

بركات المكان والزمان ونفحات الإيمان والقرآن.. فنجده يقول فيها:

الكعبة الشماء في مذهبي قيمتها ليست بأحجارها
والقرب من خالقها ليس في تشبث المرء بأستارها
قدسية الكعبة في جمعها أمتنا من كل أقطارها
وأنها محور أ مجادها وأنها مصدر أنوارها
وكعبة المؤمن في قلبه يطوف أنى كان في دارها

و يقدم لنا الأميري تجربة شعرية أخرى تتعلق بالحج، وهي أن يحج المرء بروحه مع الحجيج، ويشاركهم مشاعرهم، وهو يراهم أمامه على شاشة الفضائيات، يتنقلون بين المناسك هنا وهناك. يقول عن هذه التجربة الرائعة: كنت مريضاً والإذاعة تنقل مشاعر الحج عبر الأقمار، وأنا أتابعها بوجد وحنين بين شرود... وشبه شهود!... وكان في الحج اثنان من أبنائي... وفي سرحة متألقة... محلقة.. خيل إلي أني أراهما ثم أندمج بهما، وكأني أحج معهما، وقد عوفيت من مرضي.

ثم يجسد هذه التجربة الروحية في قصيدة بعنوان "حج بالروح"، يقول فيها:

رأيتكما في سرحة الغمض والمنى
وقد يبصر الإنسان بالقلب مغمضا
رأيتكما بين الحجيج، فهللت ضراعة روحي بالدعاء وبالرضا
وجنحني قلبي بخفق وجيبه وأشرع نفسي نحوكم و بها مضى
فحلقت أسمو من مقامي إليكما
بروح نضا عنه الكثافة وانتضى([1])

---

[1] - مجلة الحج والعمرة، شعبان، ١٤٢٩هـ، ص:٧٨- ٧٩.

أحمد شوقي[١]

(١٨٦٨م- ١٩٣٢م)

في سنة ١٩١٠م عزم الخديوي عباس، ومعه والدته، ونفر من الحاشية والمرافقين على القصد إلى الديار الحجازية على نية الحج والعمرة ودعا الخديوي شاعر الدولة آنذاك أحمد شوقي (١٨٦٨م- ١٩٣٢م) ليكون معه في رحلته الحجازية فهي فرصة لأداء الفريضة، والاعتمار والزيارة، وكانت صلة شوقي بعباس صلة حسنة جداً. وكان الخديوي يعلم خوف شوقي من الأسفار،

---

[١]- ولد أحمد شوقي عام ١٨٦٨م بالقاهرة، تلقى دروسه الابتدائية والثانوية، وتقدم إلى مدرسة الحقوق في سن مبكرة، ثم عدل إلى قسم الترجمة، ونال شهادة النهائية، ثم أرسله الخديو توفيق إلى فرنسا على نفقته ليدرس الحقوق والآداب، فدرس عامين في مونبيليه وعامين في باريس، وبعد عودته من فرنسا تقلد المناصب حتى تولى رياسة القلم الأفرنجي في عهد الخديو عباس الثاني، ثم غادر البلاد بعد خلع الإنجليز الخديو من عرش مصر، واختار برشلونه بأسبانيا، ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن عاد السلام إلى العالم، ثم انصرف شوقي بإلهامه وأنغامه إلى الشعب، يذود عن حوضه، ويهتف بمجده، ويحرب عن شعوره، وينقل عن طبعه، ويتغنى بجهاده، حتى حمدت له مصر والعرب هذه اليد، فأقاموا له في دار الأوبرا مهرجاناً عاماً لتكريمه اشترك فيه رجالات مصر وأقطاب الدول العربية برعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، ويكاد النقاد يجمعون على أن شوقي كان تعويضاً عادلاً عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبي، لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر ويجدد ما اندرس من نهج الأدب حسب رأي حسن الزيات، وشوقي محافظ في دينه ولغته وفنه، يكثر الترديد لأسماء الأنبياء والخلفاء والكتب المنزلة والأماكن المقدسة، ويؤثر النسج على منوال الفحول من شعراء العصر العباسي، ولشوقي نثر مسجوع لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن، جمع طائفة كبيرة منه في كتاب سماه "أسواق الذهب".

فخيره بين الحج براً، وأو بحراً، فاعتذر ودعا له دعاء صالحاً (الديوان هوامش ٤٤٢) وتخلف عن ذلك الركب، مع البكاء الشديد والمعاذير لله تعالى، والخشية منه ولم يبين نوع العذر ولا مانع الاستطاعة.

وقد نظم في ذلك قصيدته الرائعة (إلى عرفات الله) التي بدأها وهو يخاطب الخديوي عباس بن محمد توفيق، وكنى عنه بـ(ابن محمد) وهو والده محمد توفيق (وقد تبدل هذا الشطر في النص المنشد فصار: إلى عرفات الله يا خير زائر) قال (٤٤٤ : ١):

إلى عرفات الله يا ابن محمد
عليك سلام الله في عرفات
ويوم تولي وجهة البيت ناضراً
وسيم مجالي البشر والقسمات
على كل أفق بالحجاز ملائك
تزف تحايا الله والبركات
وفي الكعبة الغراء ركن مرحب
بكعبة قصاد وركن عفاة
وما سكب الميزاب ماء وإنما
أفاض عليك الأجر والرحمات
وزمزم تجري بين عينيك أعيناً
من الكوثر المعسول منفجرات
ويرمون إبليس الرجيم فيصطلي
وشانيك نيراناً من الجمرات

ووقف شوقي ليصف جانباً من مشهد الناس وهم يؤدون

المناسك ويجولون في تلك المشاعر داعين ملبين مبتهلين : .

لك الدين يا رب الحجيج جمعتهم
لبيت طهور الساح و العرصات
أرى الناس أصنافاً ومن كل بقعة
إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت
لديك ولا الأقدار مختلفات
عنت لك في الترب المقدس جبهة
يدين لها العاتي من الجبهات
منورة كالبدر شماء كالسها
وتخفض في حق وعند صلاة

فقد وصف اجتماع الناس من أنحاء الدنيا في هذه البقاع الطاهرة، ووصف أحوالهم وقد ساوى الإسلام بين أقدارهم، وساوى لباس الإحرام بين أشكالهم ومظاهرهم، والتقى الجميع على طاعة الله والخضوع له، واكتسب المؤمنون نور الوجه من نور الإيمان فاكتست بالجمال الحقيقي، واعتزت بعزة دين الله، واكتسبوا الإباء والشمم، فجباههم من العزة كأنهم (السها) ذلك النجم البعيد في أعالي السماء، ولكنها تخفض فقط لله تعالى في الصلاة، كما تذعن للحق أينما كان.

واعتذر عن التخلف عن دعوة عباس، وقد خيره بين سفر البر وسفر البحر:

دعـاني إليك الصـالح ابن محمد
فكان جوابي صـالح الدعـوات
وخيرني في (سـابح) أو (نجيبة)
إليك فلم اخـتر سوى العـبرات
وقدمت أعذاري وذلي وخشيتي
وجئت بضعفي شافعاً وشكاتي

وألمح إلى شيء من الاعتذار، أو متعلقاته:

ويارب لو سخرت ناقة صالح
لعبدك ما كانت من السلسات
ويـا رب هـل سيارة أو مطارة
فيـدنو بعيـد البيـد والفـلوات

فهو يتمنى لو أتيح له السفر بالسيارة أو بالطائرة (وهذا قبل أن تشهد المواصلات ذلك التطور، فقد كان في حدود التمني والترقب).

ومع الأعذار قدم حسن العمل الذي يعتد به:

وتشهد ما آذيت نفسـاً ولم أضر
ولم أبغ في جهري ولا خطـراتي
ولا جال إلا الخـير بين سرائري
لـدى سـدة خـيرية الـرغبـات
وإني — ولا من عليك بطاعـة —
أجل وأغلي في الفـروض زكاتي
وأنت ولي العفو فامـح بناصـع
من الصفح ما سودت من صفحاتي

وبعد أن ذرف الدموع شوقاً إلى مكة والكعبة والمشاعر، وعلى فوات حظه من أداء الفريضة، وقد قدم أعذاره، وشرح حاله، وسعيه بجهده وكده ليبلغ رضوان الله تعالى، التفت إلى الخديوي يحمله أمانة وهو يقصد إلى المدينة المنورة، أن يبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم التحية منه، وأن يذكر عنده حال المسلمين في شرق الأرض وغربها.

فقل لرسول الله: "يا خير مرسل
أبثك ما تدري من الحسرات
شعوبك في شرق البلاد وغربها
كأصحاب كهف في عميق سبات
بأيمانهم نوران ذكر وسنة
فما بالهم في حالك الظلمات
وذلك ماضي مجدهم وفخارهم
فما ضرهم لو يعملون لآت
فقل: رب وفق للعظائم أمتي
وزين لها الأفعال والعزمات[1]

[1] صفاء الدين محمد أحمد، مجلة الحج والعمرة، رمضان، ١٤٢٦هـ، ص: ٣٣- ٣٥.

الدكتور الشاعر محمد إقبال[١]

(١٨٧٧م - ١٩٣٨م)

نقدم نموذجاً من الرحلة الحجازية الخيالية وهي إبداع فني رائع، نقلاً مما كتبه الإمام الشيخ أبوالحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى في كتابه "الطريق إلى المدينة".

لقد عاش الدكتور محمد إقبال(١٨٧٧م - ١٩٣٨م) شاعر الإسلام وفيلسوف العصر- مدة حياته - في حب النبي صلى الله عليه

---

[١] - هو يُعَدُّ في طليعة المفكرين الإسلاميين الثائرين الذين نقدوا الحضارة الغربية نقداً جريئاً عميقاً متزناً، لا تطرُّف فيه ولا إنكار للواقع، ولا مكابرة في الحقائق، فقد يُعتَبَرُ محمد إقبال بحق أنبغ عقل أنتجته الثقافة الجديدة التي ظلت تشتغل وتنتج في العالم الإسلامي من قرن كامل، وأعمق مفكر أوجده الشرق في القرن المنصرم. ولد في مدينة سيالكوت في مقاطعة بنجاب عام ١٨٧٧م، التحق بكلية الحكومة في لاهور حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة و أخذ درجة الماجستير في الفلسفة بامتياز، وعُيِّن أستاذاً للفلسفة والإنجليزية في نفس الكلية، وسافر إلى لندن عام ١٩٠٥م حيث التحق بجامعة كمبردج وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم الاقتصاد، وسافر إلى ألمانيا وأخذ من جامعة ميونيخ الدكتوراه في الفلسفة، ثم رجع إلى لندن وحضر الامتحان النهائي في الحقوق، و انتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن، وتخصص في المادتين، وألقى عدة محاضرات في مدارس، وأخرى في جامعة كمبردج، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعماء الفلسفة والدين اعتناء عظيماً، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والطليانية والروسية، وانتخب رئيساً للرابطة الإسلامية عام ١٩٣٠م، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب، وعرض في خطبته فكرة باكستان لأول مرة، ومثل مؤتمر المسلمين في مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣١م - ١٩٣٢م، وأقامت له جامعة أرسطو وجامعة روما وجامعة السوربون، وجامعة بحريط والمجمع الملكي في روما حفلات تكريم، وتوفي في ٢١/أبريل سنة ١٩٣٨م، وشيعت جنازته في حشد كبير قلما شوهد مثله، وله سبعة دواوين في الفارسية وثلاثة في أردو ومحاضرات في الإنجليزية.

وسلم ، والأشواق إلى مدينته ، وتغنى بهما في شعره الخالد ، وقد طفحت الكأس في آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه ، وانهمرت الدموع ، ولم يقدر له الحج وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم لجسمه الضعيف الذي كان يعاني من زمان الأمراض والأسقام ، ولكنه رحل إلى الحجاز بخياله القوي ، وشعره الخصيف العذب وقلبه الولوع الحنون ، وحلق في أجواء الحجاز ، وتحدث إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بما شاء قلبه وحبه وإخلاصه و وفاؤه ، وتحدث إليه عن نفسه وعن عصره وعن أمته وعن مجتمعه ، وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعاني والحقائق التي كان الشاعر يغالبها ويمسك بزمامها ، وينظر فرصة إطلاقها ، وقد رأى أن فرصتها قد حانت ، وهذا أوانها ومكانها ، فخاطب نفسه بقول الشاعر :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى
فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

فكان شعره في النبي صلى الله عليه وسلم من أبلغ أشعاره وأقواها ، وكان حشاسة نفسه وعصارة عمله وتجاربه ، وكان تصويراً لعصره وتقريراً عن أمته ، وتعبيراً عن عواطفه.

لقد قال محمد إقبال هذه الأبيات ، وهو يتخيل أنه مسافر إلى مكة والمدينة ـ شرفهما الله ـ يهوي به العيس ، ويسير به الركب على رمال وعساء يتخيل بشدة شوقه وحبه أنهما أنعم من الحرير ، وإن كل ذرة من ذراتها قلب يخفق ، فيطلب من السائق أن يمشي رويداً ، ويرفق بهذه القلوب الخفاقة ، ويحدو الحادي بما لا يفهمه

فتثور أشجانه، وتترنح أعطافه وتهيج شاعريته، وتنطلق قيثارته بشعر رقيق بليغ.

ثم يسعد بالمثول بين يدي الرسول، فيصلي ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه، وينتهز الفرصة فيحدثه عن نفسه وبلاده، والفترة التي يعيش فيها، وعن أمته، وعن الأزمات والمشاكل التي تعانيها، وما فعل بها الزمان وطوارق الحدثان، وما فعلت بها هذه الحضارة الغربية، والفلسفات المادية، وما فعلت برسالتها والأمانة التي حملتها، وأين هي من ماضيها وخصائصها، يرثي لها تارة ويبكي، ويشكوها مرة ويعاتب، ويشكو غربته في وطنه، و وحدته في مجتمعه، و ضيعة رسالته من أمته، وقد سمى هذه المجموعة بـ"هدية الحجاز" كأنها هدية حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه، ولا شك أنها هدية مباركة للعالم الإسلامي ونفحة فائحة من نفحات الحجاز.

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة، وقد أربى على الستين، ووهنت قواه، في سن يفضل فيها الناس الراحة والإقامة، فما باله يسافر وهو شيخ، وقد أضعفه المرض والشيب، والسفر إلى الحجاز شاق مضن، وقد نصحه الأطباء والأحبة بالراحة والهدوء، ولكنه يعصيهم ويطيع أمر الحب، ويلبي منادي الشوق ويقول: لقد توجهت إلى المدينة رغم شيبي وكبر سني، أغنى وأنشد الأبيات في سرور وحنين، ولا عجب فإن الطائر يطير في الصحراء طول نهاره، فإذا أدبر النهار وأقبل الليل، رفرف بجناحيه، وقصد وكره ليأوي إليه ويبيت فيه.

كأنه يقول لماذا تعجبون إذا قصدت المدينة، وهي وكر طائر الروح، ومأرز المؤمن في أصيل حياتي، وفي سن أشرفت فيها شمس

الحياة على الغروب، أما رأيتم الطائر إذا جن الليل أسرع إلى وكره.

بدأ محمد إقبال سفره وهو شيخ مريض، وسارت به الناقة بين مكة والمدينة سيراً حثيثاً، وقد قال لها، رويدك يا حبيبتي، فإن راكبك لاغب ومريض وكبير السن، فمشيت في نشوة وطرب، ولم تبال كأن الصحراء حرير تحت أرجلها.

يسير الشاعر في هذا الركب الحجازي الذي يحدو بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ويريد الشاعر أن يسجد سجدة على هذه الرمضاء، يدوم أثرها في جبهته طول حياته، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه، ويملكه الشوق فيحدو وينشد أبياتاً من شعر العراقي والجامي، فيتساءل الناس من هذا الأعجمي، الذي يغني ويحدو بلغة لا نفهمها؟ ولكنها نغمة تشجي القلوب وتملؤها إيماناً وحناناً، حتى يذهل الرجل في هذه الصحراء عن الغذاء والماء.

ويلذ الشاعر بكل ما يعتريه في الطريق من سهر وعناء، وقلة طعام وشراب، ولا يستطيل الطريق ولا يستبطئ الوصول، بل يقترح على سائقه أن يأخذ طريقاً أطول حتى يعيش في هذه الأشواق وفي هذا الحنين مدة أوسع، وتشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق ونزهة المشتاق.

وهكذا يطوي محمد إقبال هذه المسافة في سرور وحنين، حتى يصل إلى المدينة، فيقول لزميله: تعال يا صديقي نبك سروراً، ونتحدث ساعة ونرسل النفس على سجيتها، فإن لنا شأناً مع هذا الحبيب الذي أسعدنا به الحظ بعد طول فراق وشدة اشتياق.

ويقبل على نفسه فيتعجب كيف اختص من بين أقرانه بهذه السعادة، ثم يقول: لا عجب فإن المحبين المتيمين أكرم هنا من الحكماء

المتفلسفين، يا سعادة المجد، ويا حسن الطالع، لقد سمح لصعلوك مملوك أن يدخل على السلاطين والملوك.

ولا يلبث محمد إقبال - وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة أن يذكر أمته المسلمة والشعب المسلم الهندي، يذكرآلامهما وآمالهما، فيذكر كل ذلك في بلاغة الشاعر، وصدق الرائد، وما أجملهما إذا التقيا، يقول:

"إن هذا المسلم البائس الذي لا تزال فيه بقية من شمم وإباء وأنفة الملوك وعزة الآباء، لقد فقد مع الأيام يا رسول الله، لوعة القلب وإكسير الحب، إن قلبه حزين منكسر، ولكنه لا يعرف سر ذلك".

ماذا أحدثك به يا رسول الله عن آلامه ورزيئته، حسبك إنه هوى من قمة عالية، إنه هبط من تلك العليا التي وصلت به إليها، وكلما ارتفع المكان الذي يسقط منه كان ألمه شديداً، وكانت الصدمة عظيمة، فلطف الله بهذه الأمة المنكوبة الهاوية من قمة المجد العالية.

إنه لا يزال الزمان يعاديه، ولا يزال ركبه تائهاً في الصحراء بعيداً عن غايته ومنزله، حسبك من هذه الأمة وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب أنها تعيش من غير إمام".

"إن غمده فارغ ككيسه، فهو أعزل فقير، إن الكتاب الذي فتح به العالم وضعه في بيته الخرب على طاق تراكمت عليه الأتربة، ونسج عليه العنكبوت".

"إنه أصبح بطول عهده بالمغامرات والبطولات لا يفهم لغة المغامرين وإهابة الشجعان المجاهدين، وقد ألف نغمة المغنين، وعاش بين الزفرات والأنين".

"وإن عينه فقدت النور، وإن قلبه حرم السرور، إن رزيئته إنه يعيش ولا يعرف لذة الوصال والحضور".

ثم يذكر الفرق بين ماضيه العظيم الذي كان فيه موضع رعاية وعناية واحتفاء، وحاضره القاسي الكالح، وكيف صعب عليه أن يتقشف ويعتمد على نفسه، ويكدح في الحياة، وما أبلغ قوله.

"إنه طائر مدلل، كنت تطعمه بيدك، وقد ربيته بالفواكه فشق عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء"([1]).

---

[1]- الطريق إلى المدينة للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ص: ٢٤- ٣٠.

الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي([1])

(و ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م)

وفي الختام وهو مسك الختام، نذكر نموذجاً آخر فيه العاطفة وروعة البيان والحب الغامر لمهبط الوحي ومولد الرسول عليه السلام،

---

[1] - هو من رواد حركة الدعوة الإسلامية وحملة الفكر الإسلامي في العصر المعاصر، ولد عام ١٣٤٨هـ المصادف عام ١٩٢٩م، نشأ في بيته بيت العلم والصلاح، ثم انتقل إلى لكهنؤ بعد التعليم الابتدائي، وتتلمذ على خاله الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، وقرأ عليه كتب الأدب واللغة والعلوم الشرعية، ثم التحق بجامعة ندوة العلماء، وتخرج في عام ١٩٤٨م وفي عام ١٩٤٩م عُيِّن في دار العلوم لندوة العلماء كمدرس مادة اللغة العربية وآدابها، ولازم صحبة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي في رحلاته، فسافر معه إلى الحجاز في عام ١٩٥٠م، وأقام أكثر من سنة قضاها في الدعوة وكسب العلم من مناهل العلم والمعرفة فيه، ثم عاد إلى لكهنؤ وعُيِّن أستاذاً مساعداً للأدب العربي في دار العلوم لندوة العلماء في عام ١٩٥٢م، وفي عام ١٩٥٥م عُيِّن رئيس قسم الأدب العربي فيها، وفي عام ١٩٧٠م اختير عميد كلية اللغة العربية وآدابها، و في عام ١٩٩٣م عُيِّن مديراً لدار العلوم لندوة العلماء، وفي عام ١٩٩٨م عين نائب رئيس ندوة العلماء، وعين في ٣/ يناير من عام ٢٠٠٠م رئيساً عاماً لها، وفي عام ٢٠٠٣م اختير رئيساً لهيئة قانون الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند، وأصدر في عام ١٩٥٩م صحيفة "الرائد" وهي صحيفة عربية نصف شهرية، لا تزال تصدر من ندوة العلماء، و شارك في عدد من الندوات والمؤتمرات والملتقيات الأدبية والعلمية على المستوى المحلي والعالمي والدولي، وقدم بحوثاً ومقالات نشرت بعضها في كتيبات وبعضها في المجلات والصحف الوطنية والعالمية، وزار عدداً من بلدان أوربا وآسيا وإفريقيا و زار فيها الجامعات و المعاهد، وتقديراً لأعماله في خدمة اللغة العربية منحه رئيس جمهورية الهند الجائزة التقديرية في عام ١٩٨٢م، ويرأس عددا من المؤسسات و الجمعيات ،وله مؤلفات بالعربية والأردية وبعض منها ترجمت إلى الإنجليزية والهندية، منها تاريخ الأدب العربي(العصر الإسلامي) الأدب العربي بين عرض ونقد، منثورات من أدب العرب، جزيرة العرب، وسراجاً منيراً سيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم.

ودار الهجرة، مما كتبه شقيقنا الأكبر الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي الذي سجل ارتسامات رحلته الحجازية ومشاعره وما شاهده فيها، وقد قام بهذه الرحلة الحجازية برفقة خاله العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى بدءً من أغسطس ١٩٥٠م انتهاءً إلى أكتوبر ١٩٥١م، فيقول:.

" لقد كان من أعزّ آمالي، وأكرم تمنياتي أن أتمكّن من زيارة بلد عربي، وقد حقّق الله أمنيتي هذه، وأكرمني أولاً بزيارة الحجاز - موطن الهدى، مبعث النور، ومركز الإسلام، فركبت البحر، وقد كنت سمعت عن جلاله وعظمته، قبل أن أبصره؛ أو أركب على متنه، الذي إذا أراد رجل أن يأتي عملاً لا يطاوعه، قالوا له: هل ركبت البحر؟ والذي تهيَّب منه كثير من الرجال ووصفوه بالروعة والهول، فقال أبوفراس الحمداني الشاعر المعروف حين أسره، شارحاً لِما يحيط به من قسوة وبؤس:.

فكيف وفيما بيننا ملك قيصر

وللبحر حولي زخرة وعباب؟

فلما ركبته وطمى بي، خوَّفني وشغل بالي، فقضيت يومين لا أهتمُّ إلا بأن يهدأ ويسكن، ولو أن رحلتي هذه في البحر كانت رحلة حبيبة إلى النفس، فقد كنت أقترب إلى البلاد التي طالما دار حولها خاطري، وجالت فيها روحي، لكن البحر اصطلح لي بعد زمن يسير فلم أقض على ذلك إلا بضعة أيام حتى لاحت لي جبال من حضرموت، كانت جرداء، وكانت كجبال عامة، رأيتها في حياتي، لا

تختلف عنها، لكن ليت شعري من أين جاء ذلك الحنين الذي كنت أشعر به نحوها، وذلك الانجذاب الذي كنت أجده إليها في قلبي، وبعد لأي لاحت لي على الساحل صنادق كثيرة بيضاء، تلمع في الضحى؛ لا كما تلمع المرآة والفضة، أو كائن من الكائنات اللامعة؛ بل إنما كانت تلمع كما يلمع الشئ الأبيض في ضوء النهار، مثل ما يحدث به الشاعر حسان ابن ثابت الأنصاري رضي الله عنه:.

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وبدأت باخرتي التي كنَّا عليها تقترب إلى مجموعة هذه الصناديق الكبيرة اللامعة المنبثَّة على الساحل، وبدأت تزداد وضوحاً وكبراً، وبعد قليل تحولت إلى مدينة فيها قصور شامخة، وبيوت جميلة بيضاء الجدران، يحلو منظرها من بعيد، وسألت عن اسمها، فأخبروني أنها "مكلا" عاصمة إمارة من إمارات الجزيرة العربية، وهي أول مدينة عربية أبصرتها في حياتي، وما كان بعد ذلك إلا أيام حتى نزلت في جدة، وهي باب الحجاز اليوم، مع أن تاريخ الجزيرة العربية قلما يساعدنا في التماسها في غابر الأيام، وإن لها اليوم لشأناً أي شأن في مدن الحجاز، ولا تزال تزداد رونقاً وازدهاراً وعظمة، وتوشك أن تضارع أوسط الحواضر العربية، وهناك شاهدت أول مرة الحياة العربية المسلمة، ولمست ملامح من المدنية العربية الحاضرة، واجتمعت مع الرجال والأعيان، وقد اجتمعت مع السرى الفاضل الكبير محمد نصيف، وهو من رجال الحجاز المشهورين علماً ومكانة، وذو مطالعات واسعة في الدين والثقافة.

ثم توجَّهت إلى مكة المكرمة مهبط الأنوار ومولد الرسول عليه الصلاة والسلام، أم القرى التي عمرها إبراهيم عليه السلام بقوله: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ" (إبراهيم: ٣٧) والتي أمر الله فيها نبيَّه إبراهيم عليه السلام بقوله: "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ" (الحج: ٢٧) بلدة فيها الصفا والمروة وزمزم، فيها حراء وثور، وعرفة، والمشعر الحرام، وفيها منى الذي يقول متحدثاً عنه الشاعر:

فلما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا
ولم ينظر لغادى الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح

وليس احترام مكة مقتصراً على المسلمين؛ بل وإنما أحبتها العرب في الجاهلية، كذلك نرى ذلك في قول مضاض بن عمرو حين يحنُّ إليها عندما نفته خزاعة مع قبيلته فأشرف إليها من جبل، وقال:.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

واستطرد فقال:.

وسحَّت دموع العين تبكي لبلدة
بهـا حـرم أمن وفيهـا المشـاعـر

دخلت في مكة وأقمت فيها حول بيت الله الحرام ـ ويا للشرف ـ أكثر من نصف عام، اختلست من خلاله أياماً لزيارة الطائف مصيف الحجاز وحقل مكة للفواكه والأثمار، تلك البلدة التي قرنتها العرب بمكة في العظمة والأهمية، كما حدث القرآن عنهم: " وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ " (الزخرف: ٣١) ولما توفي عمّ الرسول عليه السلام أبو طالب، وكان يحميه من الأعداء، توجَّه إليها ورجا من أهلها أن يعتنقوا دينه ويحموه، فقسوا عليه قسوة ما برحت ذكرى أليمة في نفسه عليه السلام، لكنه لم يرض بأن يهلكوا؛ بل إنما رجا أن يكون من ولد أهلها من يؤمن وينصر الدين، فكان منهم فيما بعد رجال كبار من أمثال محمد بن القاسم الثقفي الذي غزا الهند في عهده الباكر فقال الشاعر:.

ساس الرجال لسبع عشرة حجة
ولـداتـه عـن ذاك في أشغـال

ومن غريب الأمور أن كلاً من مكة والطائف تتم ما ينقص الأخرى من جوّ وثمر، فإن أرض مكة قاحلة جديبة، وأرض الطائف خضراء منبتة، فتستورد الثمرات من هذه إلى تلك، وجوُّ مكة حارّ لا يبرد كثيراً حتى في الشتاء، أما جوُّ الطائف فبارد حتى في الصيف، ومن هنا عبر محمد بن عبد الله النميري عن ترف حبيبته وسراوة حالها بقوله:.

تشتـو بمكة نعمـة
ومصيفها بالطائف

ثم زرت المدينة المنورة وكنت جلت فيها بروحي وتمنيت بالحضور إليها طول عمري، وكان الحضور إليها من أعز تمنياتي.

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

مدينة نسبت إلى الرسول عليه السلام، هاجر إليها، فأصبحت موطن البركة والسناء والشرف بعد أن كانت بلداً فيه المرض والوباء، تلك المدينة التي صارت بعد الهجرة بمثابة القلب النابض للعالم الإسلامي، في كل بقعة منها معالم وآثار من الإسلام ورجاله، ما أبركها وأشرفها!، فيها جبل أحد، وما أدراك ما أحد؟ إنما قال الرسول عليه السلام: "أحد جبل يحبنا ونحبه". أحد الذي شهد معارك المسلمين، وحاط الرسول عليه السلام بكنفه حينما كسرت رباعيته، وفيها سلع الجبل الذي كان يتوسط عمران المدينة حتى أوفى عليه رجل من قبيلة أسلم حين قبلت توبة كعب بن مالك وقال: يا كعب: أبشر، جبلين يحن إليهما من يحن، ويذكرهما في شعره كما قال محمد بن عبد الملك الفقعسي وهو في بغداد:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بسلع ولم تغلق عليّ دروب
وهل أحد باد لنا وكأنه
حصان أمام المقربات جنيب

واستطرد فقال:

فإن شفائي نظرة إن نظرتها
إلى أحد والحرتان قريب

دخلت المدينة على صاحبها ألف ألف تحية وسلام، واجتزت وادي العقيق التي طالما لهجت به ألسنة الشعراء وذكروه، وحنّ إليه الأدباء، واختاره الرجال الظراف مجالاً لاستراحة نفوسهم، فكان منتزهاً لأهل المدينة، قالت فيه أعرابية غريبة عنها:.

إذا الريح من نحو العقيق تنسمت

تجدد لي شوق يضاعف من وجدي

مررت منه، وكان حينئذ جديباً، فلما اجتزته أصبحت القبة الخضراء أمامنا، تجذب الأبصار من أحداقها، وتنزع القلوب من أوطانها، لقد سعدنا بذلك اليوم الذي طالما قفزت له نفوسنا وارتاحت لذكره قلوبنا، إلى أن وصلنا إلى مرأي من القبة الخضراء ومسمع.

دخلت المدينة المنورة هذه البلدة الكريمة التي كان الإمام مالك حينما يحدث حديثاً يشير إلى قبر الرسول عليه السلام ويقول عن صاحب هذا القبر وكان لا يركب دابة إكراماً لأرضها وحذراً من التعلي فيها.

تلك المدينة التي لا أستطيع أن أوفي حقها من الذكر والإعظام، لأن لغتي لا تسع ذلك، وأدبي لا يقدر عليه، غير أني قد مكثت فيها برهة من الزمن، أعدُّها من خير أيامي وليالي.

إني قضيت في الحجاز مدة عام، تقلبت خلاله في بلدانه، وبعض قراه، وكنت أبغي ذلك، وشاهدت آثار الثقافة والدين، وموجات من العلم والأدب ونهضة، أرجو أن تكون مباركة، واجتمعت بشخصيات عظام لا أذكرهم في هذه الفرصة لضيقها، وسعة ذكرهم.

فقد وجدت الحجاز أرضاً طيبة، فيها حيوية كاملة، وفيها نماذج

صالحة، أما البدو فهم أكثر صفاء وأنمى بركة وأكرم نفساً، يحملون من تراث عظمائهم الكثير، وأما رجال المدن والحواضر فتسأل الله لهم الحماية من طغيان المدنية والمادة". (١)

هذه بعض نماذج الرحلات الحجازية، وهي كثيرة، وقد اخترت ثلاثة أنواع منها، النوع الأدبي الفني، النوع العلمي، النوع الخيالي، وفي كل نوع من هذه الأنواع نماذج كثيرة، وقصرت عملي وبحثي على اللغة العربية، أما اللغة الأردية والفارسية فهي أكثر وأوسع وأكثر تأثيراً، لأن اللغتين الأردية والفارسية هما لغتا الحب والحنان والرقة، ولذلك فاق الشعراء فيهما في المدائح النبوية غيرهم في التعبير عن عواطفهم وولاءهم.

يقول الشيخ أبو الحسن على الحسني الندوي وهو أديب اللغتين، وقد قدمنا نموذجاً من كتابته العربية، وله رحلة حجازية في اللغة الأردية باسم "من منزلي إلى بيت الله" وقد جرب كثير من القراء إن هذه الرحلة إذا قرأها أحد لم يتمالك قلبه، وانهمرت الدموع من عينيه، وأجهش بالبكاء، ولا يستطيع أحد أن يقرأه قراءة واحدة.

يقول في عواطف الهنود والفرس عن النبي صلى الله عليه وسلم:.

"وقد تحقق عند المطلعين على الأدب الإسلامي العالمي الذين درسوا آداب اللغات التي تكلمت بها الشعوب الإسلامية في بلادها،

---

[1] - مجلة البعث الإسلامي، الصادرة بندوة العلماء لكناؤ، السنة الأولى، العدد السادس، رجب عام ١٣٥٧، المصادف: مارس ١٩٥٦م.

وتذوقوا شعرها، أن اللغة الفارسية هي أغنى ثروة، وأسعد حظاً في المدائح النبوية من غيرها وتليها أردو التي هي سليلة الفارسية، وأن ما قيل في إيران والهند في هذا الموضوع يمتاز عن غيره قوة وتأثيراً، ورقة وعذوبة، وقد تجلت فيه العاطفة أقوى وأروع منها في غيره".(١)

وكان من حق الرحلات الحجازية باللغة الأردية أن ينظر إليها، وتدرس، ولكن العواطف الجياشة والحنان المتدفق لا يترجم، ولا يقدر على نقله إلا أديب أكثر قدرة على البيان، وأنا اعترف بعجزي عن ذلك.

---

١ - الطريق إلى المدينة للشيخ الندوي، ص: ٩٧.

فهرس المحتويات

كلمة الناشر ٥
كلمة بين يديَّ الرسالة ٧
المقدمة ١١

الرحلات الحجازية ومناهج كتابها في العصر الحديث

أدب الرحلة ١٥
الرحلة عند العرب ١٦
الرحلة الخيالية ١٨
الرحلة الحجازية ١٨
مناهج الكتاب في وصف الرحلة الحجازية ١٩
علي الطنطاوي ٢٠
الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي ٢٥
محمد الأمين الشنقيطي ٢٨
محمد حسين هيكل ٣٥
العلامة محمد رشيد رضا المصري ٣٩
أمير البيان شكيب أرسلان ٤٣
عبد الوهاب عزام بك ٤٩
عباس محمود العقاد ٥٣
الدكتور أحمد حسن الزيات ٥٦
الأديب يوسف إدريس ٦٠
الدكتورة عائشة بنت عبد الرحمن الشاطئ ٦٤
الشاعر محمود غنيم ٧٠
عمر بهاء الدين الأميري ٧٤
أحمد شوقي ٧٦
الدكتور الشاعر محمد إقبال ٨١
الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي ٨٧